عزام

مشاهدات في الهند

مشاهدات في الهند

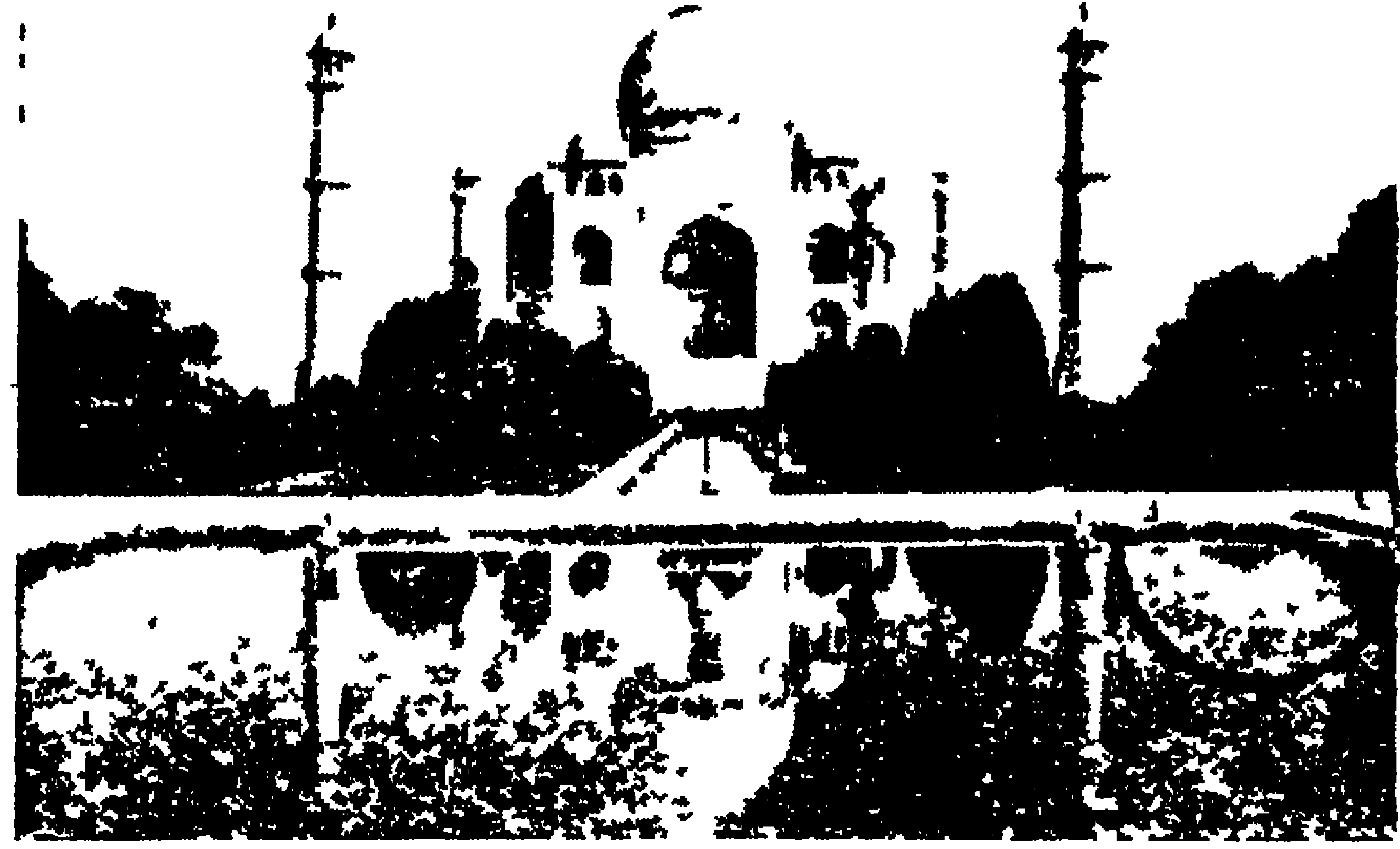
أمينة السعيد

مشاهدات فى الهند

اقرأ ٤٥

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اورآ ٤٥ — أغسطس ١٩٤٦



مقبرة تاج محل (صفحة ١٠٤)

١

كان الهدوء شاملا ، والليل بارداً ، وهواء الشتاء القارس يصفع الوجوه ؛ والقاهرة بنت المرح والنور تنام فى ظلام دامس لا يخفف من رهبته غير التماع بعض النجوم الساهرة ، وهى تطل بين آونة وأخرى ، فتلقى علينا من السماء الملبدة بالغيوم بسمة متألقة وتنسلت بنا سيارة المطار فى تهادٍ و بطء . كأنها تشفق أن يزعج صوت عجلاتها الضخمة هذا السحر المصرى العجيب !

جلسنا جميعاً صامتين ، وقد تدثر كل منا بمختلف الأغطية والمعاطف استعداداً لدرء البرد فى طبقات الجو العليا ، التى سنشقها بالطائرة فى رحلة طويلة إلى الهند .

ولم يكن بيننا تعارف قديم ، لتبادل التحيات والحديث ، فأطبقت الشفاه ، وأطرقت الرءوس ، وغرقت العيون فى لجة عميقة من التفكير ؛ فربط الماضى بيننا جميعاً و إن اختلفت تعبيرات الوجوه باختلاف الماضى الذى نجول فيه .

وثقل هذا الصمت على ضابط انجليزى شاب، فانبرى للحديث عسى أن يحطمه ، ولم يكن الحديث مرغوباً فى هذه اللحظة ، فلم يجد بيننا مشجعاً أو مجيباً ، فانخفض صوته تدريجاً ، وماتت الكلمات على شفتيه ، وأطبق السكون مرة أخرى ، ولم نعد نسمع غير حفيف عجلات السيارة ، وهى تتقدم بنا حثيثاً نحو المطار .

وتفرقنا فى مقصف المطار ، وانتحيت جانباً أرتشف فيه قدحا من القهوة ، وأتأمل منه جماعة المسافرين . لم أجد بينهم غير امرأة واحدة تصحب طفلة جميلة لا تزيد سنها على خمس سنوات؛ ورأيت فى وجه هذه المرأة مزيجاً من التفاؤل والوجوم ، فهى تارة باسمة تنظر إلى ساعتها ، كأنها تستحث الوقت على الإسراع، وتارة أخرى جامدة العينين . بعيدة النظرات، تحاول أن تخترق حجب مستقبل لا تطمئن إليه . وقد علمت فيما بعد أنها فرنسية فرقت الحرب بينها و بين زوجها فانتظم فى سلك الجندية ، وسافر عبر البحار، وظلت هى باقية فى أرض وطنها تقاسى آلام الاحتلال والجوع والحرمان . ولما وضعت الحرب أوزارها عُين زوجها فى القنصلية الفرنسية بالصين، وأرسل يستدعيها فلبت دعوته وجاءت إلى مصر لتطير منها إلى الهند وتعبر جبال الهملايا فتستقر فى الصين.

وكانت كما توقعت نهباً لشعورين متعارضين : القلق من حياة تقبل عليها ولا تعرف من أمرها شيئاً ، والسرور لقرب اللقاء بعد أن فارقها شريك حياتها كل هذه السنين .

وعلى خطوات جلس ضابط بريطانى شاب ، لم أر فيه أثر المرح المعهود فى إخوانه ممن راضتهم الحرب على تقبل الترحال باسمين ؛ بل كانت هناك ابتسامة ، ولكنها ارتسمت على ركن واحد من فمه ، وتقلص الركن الآخر ، ولاحت عليه تباشير زمجرة يزيدها تألق عينيه البراقتين سخرية وقسوة ، فالعالم أجمع لا قيمة له فى نظر مثل هذا الرجل ، وصور الحياة مهما تعددت ألوانها لا تستطيع أن تحرك روحه الجامدة ، وتثير فى نفسه ثقة أو تفاؤلا . وسمعته يقول لأحد زملائه :

— وأى فائدة من البقاء فى الوطن ؟! لقد سُرِّحت عند ما وضعت الحرب أوزارها ، فوجدت العالم فى عهد السلم أشد تطاحناً منه فى ميادين الوغى واشتممت رائحة جولة ثانية لابد أن يثار عجاجها قريباً بين الظافرين ، فأشفقت نفسى من كفاح اجتماعى كتب له أن ينقطع فى بدايته ، لذلك تطوعت ثانية فى جيش الهند ، وسأبقى به حتى يدوى نفير القتال من جديد ! !

هكذا أقدمنا جميعاً على سفر واحد و إن اختلفت إحساساتنا ، وتنوعت دوافعنا ، وتباينت أهدافنا : فهذه الفرنسية فى طريقها إلى الصين تقصد زوجها الذى بعدت عنه سنوات طوالا ، وهذا الضابط يرحل إلى الهند مدفوعاً بالتشاؤم وفقدان الثقة بالحكمة البشرية ؛ وللباقين مآربهم الأخرى، فليس من المعقول أن ينتقل إنسان من قارة إلى قارة وقد خلف وراءه الوطن والأهل والأحباب دون حافز قوى يضطره إلى ذلك .

ولكن أكان حافزى قوياً أيضاً؟! بالأمس بدا الأمر ضرورياً حتى أننى قبلت السفر بعد أربع وعشرين ساعة ، وارتضيت الرحيل إلى أقصى نواحى المعمورة ، ولكن رأيى تغير هذا الصباح وأنا أجلس فى مقصف المطار أنتظر ساعة الرحيل و بدا الأمر تافهاً لا يستحق المخاطرة ، فأنحيت على نفسى باللائمة أن قبلت السفر وحيدة إلى بلد بعيد تفصلنا عنه آلاف الأميال ، ولا أعرف عن حياته وشئون شعبه شيئاً . ترى ماذا يكون لو سقطت الطائرة وتحطمت فحرمت وأولادى رؤية بعضنا بعضاً ؟ سيقول الكل : إنها طائشة جريئة تترك أطفالها من أجل مؤتمر نسائى هندى ، فاستحقت عقاب الجرأة والطيش !

وارتفعت يدى دون أن أشعر إلى المصحف الصغير الذى كنت أعلقه حول عنق ، فما كادت أصابعى تلمس غطاءه الفضى حتى عاودتنى الطمأنينة وشملنى هدوء عظيم ، وحسنت نظرتى إلى ما أقدمت عليه ، فعدت متفائلة كما كنت فى اليوم السابق ، وتضاءلت الصعوبات أمامى ، فغدت الرحلة سهلة يسيرة : ألا يسافر الناس كل يوم بالطائرة إلى أقطار أبعد من الهند فيصلوا سالمين ، ويعودوا إلى ذويهم آمنين ؟ !

ولماذا أخشى الرحيل وحدى ؟ حقيقة أننى لا أعرف الهند ولم أسافر إليها من قبل ، ولكننى اعتدت فى الأعوام الأخيرة أن أرحل وحيدة إلى بلاد لا أعرفها وليس لى فيها أصدقاء ينتظرون فما شعرت يوماً بالوحدة ، وما استهدفت أبداً للخطر ، فلتكن تلك الرحلات السابقة مقياساً لهذه ، ولما ينتظرنى فى الهند من راحة وسعادة .

ولم يكن المنطق سليما فى هذا التفكير ، وإنما كنت أطمئن نفسى ؛ فقد اقتصرت رحلاتى السابقة على بلاد عربية ، وبلاد العرب ترتبط جميعاً بروابط قوية من الصداقة والتفاهم واللغة والتفكير ؛ وإذا انتقل مصرى إلى سوريا مثلاً فهو فى وطنه ،

و بين أهله وعشيرته و إن اختلفت المناظر، وتغيرت الأحواء؛ لأن العربي عربي مهما تنوعت البيئة التي يعيش فيها ، والعروبة صلة جامعة تأكل المسافات ، وتوحد الأوطان .

وعادت بي الذاكرة إلى أربع سنوات مضت عند ما جلست في منزلي ذات مساء أنتظر قدوم جماعة من الضباط الهنود كنت قد دعوتهم تلبية لرغبتهم الصادقة في التعرف ببعض الأسر المصرية و إنشاء أواصر الصداقة معها .

ولم أكن أعرف إذ ذاك عن الهند قليلاً ولا كثيراً ، اللهم إلا ما ترسمه المخيلة من صور غريبة يزينها زخرف المبالغة : فهي بلاد كبيرة بعيدة تضم بين جنباتها الواسعة شعباً يركب الأفيال، ويتمرغ في الذهب . ويسكن قصوراً شامخة رصعت جدرانها بالجواهر والأحجار الكريمة ويتزعم هذا الشعب المترف الغني فيلسوف زاهد ، لا يرتدي من الثياب إلا قليلها ، ويقتات بلبن ماعزة لا تفارقه . ولقد استطاع هذا الناسك المتبتل أن يملك زمام مواطنيه ، ويوجههم نحو التحرر بطريقة سلبية عجيبة استعصى فهمها علينا معشر العرب .

ولم يكن لي عذر مقبول في هذا الخيال المبالغ فيه، فقد تعلمت

أثناء الدراسة شيئاً من الجغرافيا ، وحفظت الكثير عن الهند وأشجارها وأنهارها وحياة سكانها . وكان جديراً بي أن أعرف شيئاً عن تلك البلاد ، فأخذت في ذلك المساء أبذل مجهوداً جباراً في تقليب طيات الذاكرة واستخراج بعض معلوماتها ، فكان جهداً ضائعاً انتهى بالفشل .

وجاء الأضياف فارتحنا إليهم وغدوا على مر الأيام أصدقاء حميمين ، لا تحلو لنا نزهة أو جلسة في غير وجودهم ، وأعجبنا كثيراً بخلقهم الحميد ، ونبلهم العظيم ، وكرامتهم الشامخة ، فأحببنا بلادهم في أشخاصهم ، وتمنينا زيارتها من أجلهم . وبفضلهم زالت صور الماضي وحزعبلاته ، وتعلمنا حقائق كثيرة مثل « باكستان » وأهدافها ، والخلافات الطائفية التي تنطوي عليها تلك الأهداف .

وبدت لنا الخلافات الطائفية تافهة القيمة ، وإلا فكيف رضوا أن يجتمعوا مسلمين ونصارى وهندوس وبارسي وسيخ حول مائدتنا كل ليلة تقريباً . فنتناول الطعام معاً ، ونقضي ساعات طويلة في سمر دون أن تبدر لنا من أحدهم بادرة تدل على نفور أو خلاف ؟!

وكانت هذه الظاهرة أبداً موضع اختلاف بيننا و بينهم، فنحن نراهم أخوة يعيشون معاً ، و يتنزهون معاً ، ويأ كلون معاً، فإن استطاعوا أن يفعلوا ذلك فى مصر فلم لايفعلونه فى الهند ، إلا إذا كانت هناك أصبع محركة ؟ ! وكانوا يبتسمون لهذا الرأى و يقولون : إنهم مثل الطبقة المتعلمة ، ولا يصح أن تقاس الهند بأفراد هذه الطبقة لندرتهم ، فضلا عن أن الخلاف متأصل متشعب من الصعب أن يتصوره الغريب من بعد . ولم نصل أبداً إلى اتفاق فى هذا الموضوع .

يبدو أن صور الماضى تعددت أمامى ، وأنا جالسة فى مقصف المطار ، فشغلت بها عن المذياع الذى يردد اسمى ، و يدعونى أن ألحق بالطائرة . وكدت أتخلف عن السفر لولا ذكاء أحد المسافرين ، فقد سمع المذياع يكرر اسماً شرقياً ، فتلفت فى المكان فلم يجد وجهاً شرقياً غير وجهى ، فتقدم منى مسرعاً ، ونبهنى ، و بفضله استطعت أن ألحق بالطائرة قبل أن تقلع بدقائق معدودات !

وحلقت بنا سفينة الهواء ، وارتفعت فوق الغمام ، وراحت تشق طريقها فى الظلام ، والكل على سابق حاله : صامت

مكتئب ، يستعرض الماضى ، ويتكهن بالمستقبل ، حتى تنفس الفجر ، وتدافعت جيوش النهار زاحفة وراء طبقات الظلام الهاربة ، واصطبغ الأفق بدماء الشمس الأرجوانية ، فدبت الحركة بيننا ، وارتفعت الرءوس المطرقة ، وأشرقت الوجوه الواجمة ، وغاب الماضى بذكرياته ، ولم يعد أمامنا غير مستقبل كله أمل وابتسام . وكان انقلاباً عجيباً وإن كان طبيعاً ، فالليل مبعث التأمل والتفكير ، وفى ظلامه الدامس تكتئب النفوس ، ويشيع التشاؤم ، فما أحلى النور ، وما أجمل النهار !

دبت الحياة فى الطائرة ، ورفرفت أجنحة الإلفة فى جوها ، فلم نعد غرباء لا نتبادل تحية أو حديثاً ، بل أحسسنا أننا أسرة واحدة تضمها جنبات سفينة الهواء ، فتربطها بمصير واحد . والتفت كل إلى صاحبه يعنى بأمره ، ويسامره ، ويقص عليه نوادر حياته ومخاطراتها . وجلس إلى جوارى ضابط كهل ، قضى فى الهند زهرة شبابه ، فلما علم أننى ذاهبة إلى تلك البلاد أنبنى فى رفق ، وحذرنى أموراً كثيرة ، وكان قاسياً فى نقده للهنود ، فعاودنى التشاؤم ، وانقبض صدرى بعد انشراح ، ولكننى عدت

فتذكرت أنه سكسونى ، وللسكسون فى الشرق رأى لا نتفق معهم فيه !

وانقضى يومان فى رحلة ممتعة ، هبطنا خلالها فى مختلف بلدان الشرق ، فنزلنا أولاً بفلسطين ذات الجبال العربية المتيدة ، وهبطنا بعدها العراق أبا دجلة والفرات ومهد الثقافات الإسلامية القديمة . وشاهدت فى البصرة منظراً فريداً : آلاف الأفدنة المتصلة الممتدة ، زرعت جميعها نخيلاً ، فبدت مثل غابة شاسعة تنوء بأعباء ثقال من تمر عالمى طبقت شهرته ولذته الآفاق . وحلقنا فوق إمارة البحرين ودرنا بها مرات قبل الهبوط فرأيت جزراً ثلاثاً هى كل أرض ذلك الأقليم . تُرى أى مستقبل ينتظر هذه الدويلات الصغيرة ، وأى أمل لنا فى التقدم والارتقاء ، و بلادنا مقسمة على هذا الحال إلى فتات ينتثر هنا وهناك ؟ ؟ ! لقد علمتنا الحروب المتتابعة أن الشعوب الصغيرة لا يمكن أن تقف أمام طغيان المدنيات الحديثة ، وأن القوة فى العدة والتعداد . وخليق بنا أن نتعظ بما تعلمناه ، فنجمع شمل هذا الفتات المنثور ، حتى نصبح جبهة قوية ثابتة ، لا شعوباً هزيلة تعداد السكان فى بعضها ربع مليون ! ! !

كانت الرحلة ممتعة دون شك ، ولكنها طويلة شاقة ، فحل بى التعب والإجهاد ، ورغبت عن تتبع المناظر الرائعة التى نمر عليها ، ولم أعد أنشد غير الراحة والسكون ؛ فلما نزلنا بإيران وبأقصى شبه جزيرة العرب ، تمنيت من صميم قلبى أن أنسى فى ركن من الأركان ، فتقلع الطائرة من غيرى ، لأصيب قسطاً من الراحة المنشودة ؛ ولكن الرقابة الحازمة حالت دون تحقيق أمنيتى !

وآذنت الرحلة أخيراً بالانتهاء ، وتهادت الطائرة بعد سفر دام يومين ، ثم هبطنا عند منتصف الليل على مطار « كراتشى » ، وهى أول بلاد الهند فى طريقنا . واستقبلتنا وجوه هندية سمراء ، تضىء بالذكاء والكبرياء ، فانتحى الضابط السكسونى بى جانباً ، وقال :

— لا تنتظرى مساعدة من هؤلاء ، فأنت مسلمة ، وهم هندوس ، والأفضل أن تعدى نفسك للمضايقات !

وزعجت لقوله بعض الزعج ، ثم فكرت قليلا ، فوجدت أنه لم يكن هناك فى الواقع ما يدعو إلى الانزعاج ، فأى مساعدة أحتاج إليها من هؤلاء ، وقد أعددت عدتى لكل شىء ، فجواز

السفر كامل قانونى ، وحقيبتى خالية من الممنوعات ، ووجهتى معروفة ، ومكانى فى الفندق محجوز ؟ !

ومع ذلك ثار غضبى ، وتحفزت لأبادىء بالعدوان ، وشمرت عن ساعد المشاكسة ، لأقابل به المضايقات !

وتقدم منى هندوسى جامد الوجه ، صلب التقاطيع ، لا يظن من يراه أن الابتسام يعرف طريقاً إلى شفتيه ، فقلت فى نفسى : هنا ستكون معركتى الأولى ! وتأهبت للصراع ، وقدمت إليه جواز السفر ، وقلت متحدية :

— مسلمة مصرية ، وجهتها الهند ، لحضور مؤتمر حيدر أباد !

وتأمل الهندوسى وجهى قليلا ، وانثنى إلى الجواز يقرأه بتدقيق ، فلما تحقق من صحته ، تلا ذلك أمر عجيب لم أكن أتوقعه ، فقد أشرقت على فمه ابتسامة جميلة ، غيرت معالم وجهه الجامد ، وامتلأت عيناه بآيات الرضا والعطف ، وتدفقت منه علىّ كلمات التحية والترحيب ، فكانت مفاجأة شديدة شعرت معها بالأرض تميد تحت قدمى !

ووجدتنى أجلس فى مقعد مريح ومن حولى شباب الهندوس والمسلمين يتسارعون إلى خدمتى ، وجاءت القهوة ، وتلاها

الشاى ، ثم بدأت معركة بين هؤلاء الشبان على من يدفع عنى ثمن المشروبات .

وشاء كرم موظفى المطار أن يسهلوا علىّ زيارتى الأولى لبلاد الهند ، فاتصلوا تليفونياً بالدوائر النسائية الكبيرة ، وأنبأوا سيدات المؤتمر بقدومى، وأعطوهن اسم الفندق وعنوانه، مما ساعدنى كثيراً على القيام بمهمتى دون مضيعة للوقت .

***

ومن العدل أن أقول : إن الشعور الطيب الذى غمرنى به موظفو المطار ، ما هو فى الواقع إلا ظاهرة لما جبل عليه الهنود جميعاً من عطف وكرم على إخوانهم الشرقيين ، وبخاصة أبناء العروبة . والعجيب أنهم يعرفون عنا أكثر مما نعرف عنهم ، ويتتبعون أحداثنا السياسية والاجتماعية باهتمام وشوق عظيمين ، ويحملون لنا من التقدير والاحترام شيئاً كثيراً . وللمصرى هناك مكانة ممتازة ، لأنه دعامة الشرق كما يقولون ، ولذلك فهو يقابل بالتجلة والتكريم أينما حلّ أو ذهب ، مما يبعد عنه الوحشة ، ويملؤه بإيمان عجيب بأنه يعيش بين أهله وعشيرته ، على الرغم من اختلاف اللغة ، وتباين العادات والتقاليد .

ولا يقتصر الكرم الهندى على طائفة دون أخرى ، فقد نزلت ضيفة على الهندوس كما نزلت على المسلمين ، فلقيت من كلا الفريقين تقديراً واهتماماً واحتراماً .

***

جلست فى ركن من أركان مطار كراتشى تعبة مجهدة ، بعد رحلة طويلة شاقة ، ومفاجآت عنيفة لم أكن أتوقعها ، ودار رأسى تحت وطأة الصداع ، فأسندته إلى راحتى ، ولم تمض لحظات معدودات حتى تثاقلت جفونى ، ونعست فلم أعد أحس عما يدور حولى !

عند ما فتحت عينى مرة ثانية ، كان السكون مطبقاً ، والظلام شاملاً ، وموظفو المطار قد تركوه وانصرفوا إلى بيوتهم ؛ ولم أر على مرمى النظر مخلوقاً بشرياً غيرى ؛ وهكذا استجيبت دعوتى أخيراً ، فنُسيت فى مكان لم أكن أحب أو أرغب مطلقاً فى البقاء فيه !

ويقع مطار كراتشى فى صحراء السند القاحلة على بعد عشرة أميال من المدينة ، وسبيل الاتصال بين الاثنين سيارات خاصة كبيرة كانت قد انصرفت فى ذلك الوقت بالمسافرين .

ولا أظن أن قلبي ارتجف فى يوم من الأيام مثلما ارتجف فى تلك اللحظة التى كنت فيها وحيدة داخل مطار مظلم مهجور ، وسط صحراء قاحلة ، على بعد أميال من أول مدينة فى بلاد لا أعرفها !

وبحثت عن حقيبتى ، فلم أجد لها أثراً ، فتضاعف خوفى ويأسى ، وقمت أتفقد أرجاء المكان علنى أجد من ينقذنى من ورطتى ، واهتديت أخيراً إلى نور بعيد ، قصدته مسرعة ، فوجدت ضابط الحراسة الإنجليزى ، وقصصت عليه ما حدث ، فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

— من دواعى سرورى أن أقدم خدماتى دائماً للسيدات ، فهلمى إلى سيارتى ، وسأنقلك بها إلى المدينة .

ولم أطمئن كثيراً لهذا القول ، فاختراق الصحراء بعد منتصف الليل مع ضابط يسره دائماً أن يقدم خدماته للسيدات ، أمر لا يبعث على الاطمئنان ! ومع ذلك قبلت دعوته ، حتى أتمكن من الوصول إلى العمران ، والبحث عن حقيبتى التى أودعت فيها جميع ملابسى ونقودى .

وجلسنا فى السيارة صامتين ، وراحت عجلاتها تقطع بنا

صحراء جرداء ، مليئة بشيء ظننته فى الظلام مستنقعات ، لابيضاض لونه ، وقسوة الروائح الكريهة التى تفوح منه . واضطربت أمعائى ، وخشيت أن تكون بلاد الهند كلها على هذا الحال ، فيتعذر علىّ البقاء ، وحضور مؤتمر حيدر أباد السند الذى احتملت المشقة من أجله .

وأعترف أننى لم أكشف الآن عن حقيقة هذه المنطقة ، ولا سبب الروائح الكريهة التى تنبعث منها ؛ فعند خاتمة رحلتى عدت إلى المطار فى الظلام أيضاً ، فلم أتبين فى الذهاب أو الإياب طبيعة ذلك الجزء من صحراء السند .

وانقضت نصف ساعة تقريباً ، لم نتبادل خلالها كلمة واحدة ، ثم رأيت أمامى أنوار مدينة كراتشى المتألقة ، فبعث النور اطمئناناً فى قلبى ، وعاودنى المرح ، وزايلنى الخوف والقلق . وبعد دقائق كنا أمام الفندق ، حيث وقف مندوب شركة الطيران الذى رافقنا ذاهلاً بجوار حقيبتى ، يسائل نفسه : أين اختفت المصرية التى كانت مع جماعة المسافرين فى المطار !

***

٢

عند ما انبلج نور الصباح ، وقفت فى شرفة الفندق أتأمل مدينة كراتشى وهى تنتشر حولى أميالاً وأميالاً ، فأخذت لجمالها الحزين ، ونظافتها التامة ، وأناقة مبانيها الممتدة حتى حافة الصحراء التى تحتضن المدينة من ثلاث جهات .

ولا أظن أننى رأيت مكاناً يرفرف عليه روح حزين مثل هذه البلدة ، بل مثل الهند كلها ، فالحزن طابع الهند الأول ، تراه مرتسما على كل وجه وكل بنيان وكل طريق ؛ وهى ظاهرة عجيبة تسترعى أنظار الغريب ، ولا سيما إذا كان مثلى ينتمى إلى شعب مرح يبسم دائماً حتى للآلام والنكبات !

قد يكون حزن الهند المخيم وليد قرون متعاقبة من الآلام ، وقد يكون طبيعة فى الخلق الهندى ؛ ولكنه موجود على كل حال ، وجذوره متأصلة فى المجتمع ، وفروعه مختلطة بمواطن الجمال ، حتى ليصعب الفصل أو التمييز بينهما .

وكراتشى مدينة حديثة لم يمض على إنشائها غير بضع عشرات من السنين ، وهى لذلك تعتبر أنظف مدن الهند ، وأكثرها نظاماً : فطرقاتها طويلة معبدة ، تقوم على جانبيها مبان صغيرة قليلة الارتفاع ، لا تزيد على طبقة أو طبقتين . ويقع حى المساكن فى ناحية من المدينة ، وقد شيدت فيه منازل بيضاء أنيقة ، تحيط بها حدائق واسعة ، ولكنها منازل منخفضة ، طابعها البساطة فى البناء والتأثيث ، لأن الحكومة تملك الكثير منها ، وتخصصه لرجال الجيش والموظفين .

ويتوج هذا الحى قصر منيف لأسرة هارون الشهيرة ، ولقد بنى هذا القصر على الطراز الهندى ، فهو عظيم الاتساع ، كثير الغرف ، ذو أجنحة مختلفة ، ليعيش فيها الأبناء بعد الزواج كما هى العادة المتبعة هناك . وتحيط به من جميع الجهات شرفات كبيرة أقيمت على أعمدة بيضاء شاهقة . وأرض القصر وجدرانه وسقفه من المرمر الرائع الذى يبعث الرطوبة خلال شهور الصيف القائظة . والأرض المرمرية تغطيها أثمن السجاجيد العجمية ، والأرائك والمقاعد المنخفضة مكسوة بالدمقس المطرز بالفضة والذهب ، والموائد مليئة بالتحف النادرة . وبالقصر قاعتان

للطعام كاملتا العدة والاستعداد : إحداهما للولائم وهى تسع مائة شخص ، والثانية للاستعمال اليومى وتسع ثلاثين .

والناحية الأخرى من المدينة تحوى حياً تجارياً عظيما يقصده الغرباء عقب نزولهم بأرض الهند ، للتفرج على ما يحويه من نفائس . وعلى جوانب طرقات الحى تقوم الحوانيت الشرقية ، المليئة بالجواهر والحرير المطرز باللؤلؤ والفضة والذهب ، حتى ليبلغ ثمن قطعة النسيج منها ثروة كاملة فى بعض الأحيان . ولقد صنعت هذا الحرير أيد هندية ، لتتخذ منه ملابس السيدات المترفات ، وهى الملابس المعروفة باسم « الصارى » . والصارى عبارة عن قطعة من الحرير المطرز ، يبلغ طولها ستة أمتار ، وتلف حول الجسم بطريقة خاصة ، ومع ذلك فهى أسيرة « الموضة » ، تتغير أشكالها بتغير مزاج السيدات ، مما يستلزم إخراج تحف جديدة منها كل يوم .

والعجيب أن المنسوجات الغالية المطرزة بالفضة والذهب ، موفورة فى الهند يستطيع الإنسان أن يجدها فى كل مكان ، على حين يقاسى الشعب أزمة خطيرة فى كساء الطبقات الوسطى والفقيرة . والأنسجة التى تستعملها هاتان الطبقتان تكاد تفقد

فى الأسواق ، بل لا توجد فعلا فى أسواق الريف ، مما أدى إلى انتحار بعض النساء ، لعجزهن عن شراء ما يستر أجسادهن ، وتقارير الشرطة تحوى كثيراً من هذه الحوادث المؤسفة .

وحوانيت كراتشى متنوعة البضائع ، بعضها يبيع الفضة فقط ، ويحوى شيئاً كثيراً من الأوانى ، وأدوات الزينة الفضية التى ينقصها بوجه عام الدقة فى الصناعة ، وإن بلغ قليلها حد الكمال . أما العاج فموفور هناك ، لكثرة الفيلة فى الغابات ؛ وصناعته مربحة ، لأن الأجانب يقبلون على شراء التماثيل العاجية ليقدموها هدايا عند العودة إلى أوطانهم .

وتمتاز بضائع كراتشى بأثمانها المعتدلة . لبعدها عن العاصمة الهندية ، حيث يعيش كبار موظفى الحكومة ، ويتقاضون مرتبات ضخمة يرتفع معها مستوى المعيشة ، فتتضخم أسعار الحاجيات. ولقد رأيت بضائع فى كراتشى ، ثم شاهدت مثيلها بعد ذلك فى دلهى ، فوجدت أن الثمن فى العاصمة قد قفز إلى أربعة أمثال !

ولا شك أن شاطىء « كليفتون » هو أجمل ما رأيت فى تلك المدينة ، فقد بنى على طراز شاطىء انجليزى معروف بهذا الاسم أيضاً . وتقود إليه درجات مرمرية عريضة ، تتخللها

ممرات طويلة ، ظللت بالأقواس المقامة على أعمدة جانبية ؛ فإذا انتهت الدرجات والممرات رأينا رمالاً متسعة تنتهى بالبحر . وفى ركن من الشاطىء الرملى يقوم معبد هندوسى أثرى ، لم تشأ الحكومة أن تهدمه ، خشية غضب الرأى العام ، فبقى فى مكانه مأوى للحمام الذى يعيش فى سقفه ، ويستظل بنوافذه ، ويحلق فوقه أفواجا كبيرة ، ثم يهبط عليه ، فيكاد يخفيه تحت أجنحته البيضاء الجميلة . ولقد أضفى المعبد الهندوسى جمالا عجيباً على الشاطىء الأوربى ، فخرجت من الإثنين صورة تذكرنا بمجد الهند القديم ، وأثر الصنعة الغربية فيه .

ويقبل الناس على زيارة الشاطىء طوال العام ، ويجدون فيه متعة خلال الصيف والشتاء ، لأن البحر رفيق بكراتشى ، يغمرها بنسيم عليل عند ما يشتد القيظ فى البلاد ، ويبعث إليها بهواء دافىء يحد من قسوة شتائها الصحراوى .

وعلى رمال « كلفتون » يجلس عشرات من بائعى الأصداف يقصدونه كل يوم مبكرين ، وينصرفون عنه وقت غروب الشمس . وهؤلاء الباعة مثل صادق للصبر الهندى العجيب ، فهم يأتون كل صباح إلى الشاطىء ، ويبسطون على رماله قطعة

كبيرة من النسيج الأبيض ، يغطونها بآلاف الأصداف بعد صفها فى أشكال هندسية دقيقة ويأخذ الصف منهم معظم ساعات النهار ، فإذا انتهوا تكون الشمس على وشك الغروب ، فيجمعون ما بذلوا الجهد فى تنظيمه ، و يودعونه حقائبهم الخشنة ، وينصرفون به إلى بيوتهم ، ليعودوا فى الصباح التالى ، ويبدأوا العمل من جديد !

و بكراتشى ثلاثة فنادق كبيرة ، يقع كل منها فى حى هام من أحياء المدينة ، وجميعها مبنية على الطراز الهندى ؛ أى مكونة من طبقة أوطبقتين على الأكثر ، أرضها وجدرانها من البلاط ، وغرفها بسيطة متواضعة ، وتحيط بتلك الغرف شرفات خشبية واسعة ، تقوم على أعمدة تتخللها الأقواس . ونوافذ الفنادق وأبوابها مغطاة بستائر من «الحصر» يمكن رفعها أو إنزالها وقت الحاجة ، وهى تقوم مقام « الضلف » الخشبية فى بلادنا ، وتوجد الستائر «الحصر» فى كل مبنى هندى ، فلما سألت عن السبب قيل لى : إنها مجدولة من نبات خاص يعتبر مكيفاً للهواء ، وعند ما تشتد الحرارة فى الصيف ، ويصبح جو الهند خانقاً ، ترش هذه الستائر بالماء ، وتسلط عليها المراوح الكهربائية ،

فتخف وطأة الحرارة ، ويدور فى البيت تيار هوائى لطيف ، يجعل الحياة محتملة بين الجدران .

وخدم الفنادق عادة من الهندوس ، لأن هذه الطائفة تمثل سواد الشعب . وتقاليدها الدينية تحرم عليها تقبل الطعام والشراب من يد لا يعتنق صاحبها هذا الدين ، أما الطوائف الأخرى كالمسلمين والمسيحيين والسيخ والبارسى ، فلا يدينون بمذهب التفرقة ؛ ولا مانع لديهم من أن يخدمهم أى كان . وللسبب ذاته أيضاً نجد أن الهندوس لا يقبلون من الخدم فى منازلهم إلا من كان هندوسياً مثلهم ، أما خدم المسلمين فخليط من جميع الأديان .

وأعتقد — إن كان لى أن أحكم بما رأيته — أن فنادق الدرجة الأولى فى بلاد الهند لا يمكن أن تصل إلى مستوى مثيلاتها فى مصر ، من حيث الأناقة والاستعداد والخدمة وجمال الرياش . وليس معنى هذا أن الفنادق الهندية قذرة مثلا ، كلا. فهى على العكس من ذلك نظيفة ومنظمة ؛ ولكن الملحقات كالحمامات والأدوات الصحية فيها ليست على ما ينبغى أن تكون . وقد يرجع تفوقنا فى هذه الناحية إلى وقوع مصر فى

ملتقى الطريق بين الغرب والشرق ، وقربها الشديد من أوروبا ، وإقبال السائحين عليها أفواجاً من أنحاء العالم ، مما يقتضى توفير سبل الراحة والرفاهية لهم . ولا شك أن ازدحام المدن الهندية خلال سنوات الحرب ، وازدياد الإقبال على الفنادق ، وتعذر بناء الجديد منها ، قد خفّض مستوى هـذه الأماكن العامة عما كانت عليه وقت السلم .

ومن الزيارات التى أثلجت صدرى بكراتشى ، وملأت نفسى بالرضا ، تلك التى قمت بها إلى مدرسة أهلية تابعة لحزب المؤتمر : فقد تبين الساسة والمصلحون أن عاهة الهند الأولى جهل أبنائها ، لذلك وقفوا جهداً طيباً ، ومالا وفيراً على محاربة الأمية ونشر الثقافة المناسبة ، ففتحوا مدارس عدة ، لتلقين أبناء الفقراء مبادىء العلوم والصناعات . وكانت مدرسة كراتشى إحدى هذه المدارس ، وهى بناء ضخم واسع : به غرف دراسية كثيرة ومعامل للـكيمياء والتاريخ الطبيعى ، وقاعات واسعة مجهزة بالآلات والمغازل والمناسج ، يتعلم الصبية والفتيات فيها غزل القطن والحرير ونسجهما ؛ وهى مهنة مربحة تـكفل للطلبة بعد التخرج رزقاً طيباً

وقامت تلك المدرسة على أسس التوفيق الحقيقية فبدأت صغيرة ثم كبرت على مر الأعوام . وكان المدرسون فى عهدها الأول يعلمون التلاميذ فى الحدائق العامة تحت قبة السماء ، فلما زاد الإقبال وتوافر المال نصبوا خياماً ، أعقبتها أكواخ خشبية ، انقلبت أخيراً إلى بناء ضخم جميل .

ويسرنى أن أقول إن حزب الجامعة الإسلامية يهتم أيضاً بهذه الناحية ، و يفتتح المدارس فى بعض البلاد ، ولكن المدارس الإسلامية ما زالت معدودة ، لقلة موارد المسلمين بالنسبة إلى موارد الهندوس .

وتقتصر الملاهى فى مدينة كراتشى على دور « السينما » ، ويقبل الناس عليها من جميع الطبقات ، لأن معظم هذه الدور يتوخى عرض الأشرطة الهندية فقط . وقد تقدمت صناعة الصور المتحركة هناك تقدماً ملحوظاً ، بحيث أصبحت تدر على القائمين بها مالا وفيراً ، وتلبى رغبات الشعب الكثيرة فى هذه الناحية . ومما يدعو إلى الاغتباط أن الأسر الهندية الطيبة لا تأنف أبداً من أن يشتغل أبناؤها أو بناتها بالتمثيل والرقص ، لأن التمثيل والرقص هناك فنان جميلان يلحظان بالتقدير والفخر والإعجاب .

وتمتاز الأشرطة الهندية بطولها ، حتى ليعرض المتوسط منها في أربع ساعات على الأقل . وتقوم موضوعاتها على الأساطير الهندية القديمة ، وعلى قصص ملوك الزمان الغابر ، وما ناله هؤلاء الملوك من مجد ، ثم غضب الآلهة عليهم ، فتشريدهم وفقرهم وذلتهم ، وعودة الطيبين منهم إلى المجد مرة أخرى بعد تذوق نصيبهم من العقاب .

وجل المناظر مأخوذة من المعابد الهندوسية المقدسة ، التي تنتشر في جميع أنحاء الهند ، وتحتشد بشتى أنواع الأوثان ؛ فللهندوس آلهة لا حصر لها : منها واحد للرحمة ، وثان للقسوة ، وثالث للعفاف ، ورابع للشهوة إلى آخر هذه السلسلة الطويلة التي تمثل نواحي الطبيعة البشرية على تعددها وتنوعها .

ولا يكاد يخلو شريط سينمائي من الغناء والرقص ، والغناء في الهند شرقي جميل ، تقوم أسسه على الأنغام لا الكلمات . أما الأنغام فخليط من الفارسية والمغولية والهندية ، والكلمات مبدعة مستحدثة ، فالغناء الكلاسيكي لا يحوي شيئاً منها ، ويقتصر على نغمات يدندن بها المطرب ساعات طوالا .

والهنود جميعاً يقدسون فن الغناء ، ويعتبرون النبوغ فيه

صلة إلهية ، تمكن صاحبها من القيام بالمعجزات ، فهم يؤمنون مثلا بأن المطرب التاريخى «تانسنج» كان إذا أنشد أغنية الماء تساقطت الأمطار بغزارة ، والشمس ساطعة فى كبد السماء ! ويروون عنه قصصاً مختلفة منها أنه أنشد يوما لأحد الملوك أغنية النار فأوقدت شموع القصر المطفأة. ولا سبيل مطلقاً لمناقشتهم فى هذا الموضوع، أومحاولة إقناعهم باستحالته، فهم جميعاً على اختلاف مذاهبهم ، وتفاوت درجات ثقافتهم يؤمنون بصدق هذه القصص إيمانهم بالله والدين .



لغة اليدين فى الرقص الهندى

والرقص الهندى رائع كل الروعة ، ولكن الغريب يحتاج إلى تكرار مشاهدته ، حتى يتمكن من تقديره وفهمه . وهو فن دقيق صعب يتطلب مرانة طويلة ؛ ولذلك يتعلمونه فى الصغر ليتقنوه فى الشباب .

وعماد هذا الفن مرونة الحركات . ولغة اليدين والوجه ؛ فكل لمحة أو تعبير تعنى شيئاً ، وكل حركة بالذراع أو الكف تدل على شيء آخر ، ولابد أن يعرف المتفرج هذه اللغة ، ليتتبع الفلسفة أو القصة التي يدور الرقص حولها . والرجال كالنساء يرقصون في الهند ، ويحركون رقابهم ، وأيديهم ، وعيونهم ، وحواجبهم طبقاً لقواعد تلك اللغة الصامتة ؛ ولأن الرقص في الهند فن رفيع كما ذكرت سابقاً ، فمن المألوف أن نجد ضابطاً عظيماً أو موظفاً حكومياً كبيراً يتقن الرقص ويمارسه علانية .

وأول ما يسترعى النظر في كراتشي وفي غيرها من المدن الهندية ، كثرة البقر في الطرقات ، وما لها من سلطان على الحياة العامة ، فصاحبة الجلالة البقرة الهندية تتمتع بتكريم وتبجيل وحرية لا تتوافر لخير أفراد الشعب ، وذلك لأن الهندوس يعبدونها ، ويعتبرونها أم الله ، لأنها تدر لبنا يهب الحياة للناس ومن أجل هذه المنزلة الرفيعة تجول قطعان البقر في الطرقات كما يحلو لها ، فلا يجرؤ أحد على إيذائها أو إبعادها عن طريقه . وقد تقتحم الحوانيت في بعض الأحيان ، فإن كان صاحب تلك الحوانيت هندوسياً ، تركها تعيث في المكان فساداً ؛ أما إذا

كان مسلماً ، وحاول إخراجها قسراً ، قامت معركة دينية حامية بين الطائفتين قد تراق فيها الدماء ، وتذهب الأرواح .

والبقر أنواع ، وتعظيمه يختلف تبعاً لما يحمله من علامات وشارات ، والبقرة التى تحمل الشارة المقدسة ، تنال أعلى مراتب التكريم والإجلال، فيحتفظ بها المتدينون فى دورهم ، ويقدمون لها خير الطعام ، ويزينون قرونها بجدائل الزهور ، ويتبركون ببولها ، ويدهنون المطابخ والجدران بروثها ليقبل السعد على البيت، وتعم الخيرات !! وأمثال هؤلاء قليلون والحمد لله فى الهند.

وتقوم الديانة الهندوسية أصلا على عبادة الروح ، وتقديسها، ولو كانت لأحقر الحيوانات والحشرات . وتغالى الأقلية المتعصبة فى هذا النوع من العبادة ، حتى إنهم ليرفضون قتل برغوث أو قملة أو بعوضة ، ويتركونها تمتص غذاءها من دمائهم ، مع علمهم بأنها تحمل ميكروب الطاعون والتيفوس والملاريا الخبيثة !

وللأشجار الكبيرة قدسيتها أيضاً ، ولذلك لا يُسمح لبستانى ن يقطع غصونها أو يشذبها ، فتنمو على فطرتها ، وتتكاثف غصانها ، وتتشابك فروعها مما يعوق المرور فى بعض الأحيان .

وأذكر عندما غادرت كراتشى للمرة الثانية فى طريقى إلى

دلهى ، أن ذهبت إلى المطار فى سيارة ضخمة من سيارات نقل المسافرين ، فوصلنا من الطريق إلى منطقة تشابكت أغصان أشجارها حتى تعذر على السيارة أن تمر بسهولة ، واقتضى الحال من السائق أن يضاعف قوة المحرك ، لينتزع طريقه بين الغصون وارتفع صوت المحرك ، فكاد يصم الآذان ، وتلته قرقعة الغصون وهى تتحطم ، فانزعج الجالسون ، وانبرى أحدهم — وكان أجنبياً حضر إلى الهند حديثاً — اتأنيب الضابط الهندوسى المرافق لنا على ترك الأشجار متشابكة هكذا ، فنظر الضابط إليه بسخرية وقال :

— تذكر يا سيدى أنك فى الهند ، حيث يمكنك إذا أردت أن تقتل رجلاً ، ثم تسير آمنا فى طريقك ؛ ولكنك لن تنجو أبداً إذا ذبحت بقرة ، أو قطعت غصناً من هذه الغصون !

وبسبب هذه الأشجار يشتبك الهندوس والشيعة فى بعض الأحيان ؛ فللشيعة هناك مظاهرات دينية يحملون فيها المشاعل والبيارق ومختلف الزينات العالية . وقد يحدث أن تمر تلك المظاهرات بمناطق تشابكت أغصان أشجارها ، فيتعذر عليهم المرور من تحتها بما يحملون ، فيأبى عليهم كبرياؤهم الدينى إنزال ما بأيديهم ، فيسعون إلى تحطيم الغصون ، وإذ ذاك تنشب

معركة دامية بينهم و بين الهندوس ، قد تنجلى عن قتلى وجرحى كثيرين .

و يبدو أن الحياة البشرية فى الهند أتفه قيمة من حياة الحيوان والأشياء ، وكرامة المشاعل والأعلام ، فمن أجل هذه الأشياء يتقاتل الإخوان ، و يسفك بعضهم دم بعض .

قد يتبادر إلى الذهن بعد تكرار ذكرى للمسلمين والهندوس أن بلاد الهند لا تحوى غير هاتين الطائفتين ، ولكن الواقع غير ذلك ، فهناك شيع عدة ، وأديان كثيرة يختلف أصحابها فى الزى واللغة والدين والتقاليد والعادات . ولقد أثبتت الإحصاءات التى قام بها سير جون جريسون عام ١٩٣١ أن عدد لغات الهند يبلغ خمساً وعشرين ومائتى لغة ؛ فللبنغالى لغته ، وللبنجابى رطانته ، وللسندى لسانه الخاص ، وهكذا إلى آخره . وتختلف هذه اللغات بعضها عن بعض كل الاختلاف ، بحيث يتعذر على الهندى فى أى مقاطعة فهم ما يقوله إخوانه من أبناء المقاطعات الأخرى .

وتتعدد الأديان أيضاً تعدداً يباعد بين الناس، و ينفر بعضهم من بعض، فأكثر سكان الهند من الهندوس ، و يليهم المسلمون

فهم مائة مليون أى ربع الشعب ، و بين الإثنين ما نعرف من تطاحن وعداء .

أما السيخ فستة ملايين ، و يعيش معظمهم فى البنجاب ، وترجع ديانتهم إلى القرن السادس عشر ، عند ما ظهر مصلح كبير اسمه « جورو ناناك » ، لم يعجبه الخلاف الدائم بين المسلمين والهندوس ، ففكر فى التوفيق بينهما ، وضم صفوفهما ، لذلك بشر بديانة جديدة ، اشتق تعاليمها من الديانتين ، فجمع فيها بين الفلسفة الهندوسية ، و بين توحيد الاسلام و بعض تشريعاته ، وعاداته القديمة ، مثل تحريم الخمر والتدخين واطلاق شعر الرأس واللحية . ولم تلق دعوة « جورو ناناك » ما كان ينشده من إقبال ، فلم تصبح ديانة الهنود جميعاً ، واقتصرت على فريق محدود فقط . ومع قلة عدد السيخ اشتدت قوتهم أخيراً باقبالهم على التطوع فى الجيش خلال الحرب العالمية الأولى والثانية ، وهم يعتزون بهذه القوة ، و يرفضون الخضوع لحكم الهندوس أو المسلمين ، و ينشدون الاستقلال بأنفسهم .

وللمسيحية فى الهند أتباع ، يبلغ عددهم أربعة ملايين ؛ فلقد نشطت جماعة المبشرين خلال القرون الماضية وخاصة فى الجنوب

وقدمت من الثقافة والوظائف ما رغب الفقراء والمنبوذين فى اعتناقها . ومعظم المسيحيين يعيشون فى مقاطعة « ترافنكور » حيث يكونون ثلث عدد سكانها ، ويدخل المولدون ، وهم أنصاف الهنود وأنصاف الأوروبيين ، ضمن هذه الطائفة .

وهناك جماعة أخرى قليلة العدد عظيمة القوة والنفوذ فى الهند وهم البارسى أو عبدة النار الذين يعيشون فى بمباى ويسيطرون على التجارة والصناعة ودور المال . وقد أتقنوا هذه النواحى ، وبرعوا فيها ، فأصابوا من المال ما لا يحصى ولا يعد ، وامتلكوا أعظم مصانع البلاد ، وأكبر شركات الطيران والتصدير والفنادق فيها .

ولا يقتصر الأمر على هذه الطوائف ، فهناك أقليات أخرى مثل « الجين » ، والبوذيين الذين يقطنون المناطق الجبلية فى شمال الهند .

ولو أن الهنود جميعاً اقتنعوا بأن الدين رابطة شخصية تصل العبد بربه ، لهان الأمر ، ولكنهم يدخلونه فى السياسة والمجتمع بحيث يتعذر التفاهم ، ويستحيل التعاون ، ويشيع الخصام والقتال ، وتكون النتيجة أن تعيش كل طائفة مستقلة بجوانيتها

ومطاعمها وأماكن نزهاتها، فلا يتم الاختلاط إلا بين طبقة محدودة من المثقفين.

والعجيب أن الهنود إذا خرجوا من بلادهم — وقد فعلوا ذلك خلال سنوات الحرب — نسوا الفروق، وعاشوا معاً فى صفاء وصداقة ومحبة متبادلة. وأذكر أنهم كانوا يتوافدون على بيتى، فيجلسون معاً، ويأكلون معاً، ويتبادلون أطيب التحيات والحديث؛ ولكنهم يعودون إلى التقاطع والتشاحن بعودتهم إلى وطنهم، وتصيبهم حمى الانقسام مرة أخرى، فيتفرقون شيعاً ومذاهب، ويدب النفور والعداء، بعد الصداقة والوئام.

ومع تعقد المشكلة الهندية، فتلك الظاهرة توحي بإمكان التعاون والصداقة فى الهند، ما دام قد أمكن وجودهما خارجها، ولعل الجهل هو سبب الانقسام الأول، فنسبة المتعلمين ضئيلة، والأمية ما تزال تخيم ثلاثة وتسعين فى المائة من الشعب. ونحن نعرف أن الجهل مبعث التعصب، لأنه يحول بين صاحبه وبين تفهم روح الديانات على حقيقتها، وتطبيق مبادئ الإخاء والإنسانية التى تنطوى عليها كل عقيدة فى العالم.

ويؤيد نظريتى فى إمكان التعاون، ما يبدو فى بعض المناطق

الهندية من التعصب للعنصرية ، فهناك مثلا فريق اسمه « الراچبوت » يؤمنون بأنهم انحدروا من النار لا من الطين . و بعض قبائل الراچبوت مسلمة ، و بعضها الآخر هندوسى ، ومع ذلك تراهم يناصر بعضهم بعضاً أمام أى قوة ، ولو كانت من دينهم ، لأن رابطة العنصر أقوى فى اعتقادهم ، وأحرى بالتقديم على كل شيء آخر . وقد حدث فى الانتخابات أن رشح راچبوتى هندوسى نفسه فى قرية راچبوتية مسلمة ، ونافسه مسلم من غير تلك الطائفة . فانحاز أهل القرية إلى الراچبوتى الهندوسى ونصروه على أخيهم فى الدين . وهم يفعلون مثل هذا فى الخلافات والمشاجرات والعراك ، فتتضاءل العقيدة أمام رابطة الدم .

٣

اقترب موعد انعقاد المؤتمر النسائى ، فغادرت كراتشى بعد إقامة دامت ستة أيام ، وأخذت القطار إلى مدينة حيدر أباد السند ؛ ووقفت فى نافذته أتأمل صحراء السند الشاسعة ، وقد امتدت رمالها أميالا وأميالا ، فلا يكاد يتخلل تلك الرمال غير قرية صغيرة أو قريتين .

وكان فى رفقتى سيدتان من أعضاء المؤتمر ، إحداهما انجليزية ، والأخرى هندوسية من طبقة « البراهما » أى الأشراف ؛ فلما وقفنا بالمحطة التالية ، كان العطش قد اشتد بى ، وتاقت نفسى إلى قدح من الشاى ، فالمشروبات والطعام لا تتيسر إلا بالمحطات ، ولا يقدم شىء منها أثناء المسير ، لأن كل ديوان فى القطارات الهندية ينفصل تماماً عما يليه ، وبابه الوحيد يفتح ناحية الرصيف بحيث يستحيل على المسافر الخروج إلا عند الوقوف .

وبمناسبة القطر الهندية أقول إن مستواها قد انخفض كثيراً خلال الحرب ، لأن الحكومة أخذت أفضلها ، ونقلته إلى ميادين القتال ، وتركت للأهلين ما تبقى ، وكله عتيق قديم . والعربات هناك معدة للسفر الطويل ، لاتساع أرض الهند ، وبعد المسافات بين المدن ، ولذا لا يكون بالديوان عادة إلا سرير أو سريران أو أكثر للنوم عليها فى الليل ، والجلوس بالنهار .

والمسافات بين البلاد الهندية أعظم من أن يتصورها غريب مثلى ، وقد يستغرق السفر من بلد إلى بلد أسبوعاً أو عشرة أيام . وأذكر عند ما كنت فى زيارتى الثانية لكراتشى أنى سألت

هنديا أمدينة دلهى بعيدة.؟ فنظر إلى دهشاً لجهلى بجغرافية البلاد ، وأجاب :

— طبعاً لا ، فهى قريبة جداً ، ولن يأخذ القطار إليها أكثر من ثلاثة أيام !

قلت سابقاً إن العطش اشتد بى ، وتاقت نفسى إلى قدح من الشاى ، فلما وقفنا على المحطة التالية ، رأيت الباعة يتنقلون فيها، ويعرضون بضاعتهم على المسافرين ، فطلبت من زميلتى الهندوسية أن تطلب من أحدهم ما أريد ، فنادت أول بائع وقع نظرها عليه وأبلغته الطلب . وتطلع الرجل إلى وجهها ، فلما رأى على جبينها نجمة الهندوس الحمراء ، قطب وقال بخشونة :

— لا. لا يمكننى أن أبيعك شيئاً ، فأنا مسلم ، ولا أخدم غير المسلمين .

وكانت زميلتى واسعة الصدر متسامحة ، لأنها قضت عشر سنوات فى أوربا فلم تعد تؤمن بالخلافات الطائفية التى تستنفد جهد بلادها ، وتدفعها الى الوراء ، فابتسمت فى وجه الرجل ، وأجابت برقة :

— اننى حقاً هندوسية ، ولكن ليس لدى مانع من أن

أتناول الشراب من يدك ، بل يسرنى فى الواقع أن أفعل ذلك !

وأشرق وجه البائع المسلم ، وشاع الرضا فى عينيه ، وقال معتذراً:

— لا أرى الآن ما يمنعنى من خدمتك ، فنحن جميعاً أخوة ننحدر من أم واحدة ، وما تقاعست إلا لأن بنى دينك يرفضون عادة التعامل معنا .

وأحضر لنا الشاى مسرعاً ، وتفانى فى خدمتنا ، فكان يعود إلينا بعد ذلك فى كل محطة تالية ، ويسألنا عما نريد .

ولا شك أن هذه الواقعة تدل دلالة واضحة على أن التعصب يصدر من الهندوس أولا ، ويملى عليهم تصرفات تعضب المسلمين ، وتثير كرامتهم ، فيردون تعصباً بمثله ، أو أقوى منه ، ويقابلون القطيعة بقطيعة قد تكون أشد وأقسى .

ومما يدعو إلى الارتياح اضمحلال هذا الروح بين الطبقات الراقية والمتعلمة ، بل فقدانها فعلاً بين المتسامحين المتنورين من الطرفين ، ولكن أمثال هؤلاء قلة فى الهند ، وكثرة الشعب ما زالت منغمسة فى رذيلتى الجهل والتعصب .

***

بعد سبع ساعات طويلة بطيئة وصل القطار بنا أخيراً إلى

حيدر أباد السند ، وهى غير حيدر أباد الدكن المشهورة بحاكمها « النظام » أغنى أغنياء العالم . ولم أكن أعرف أحداً بهذه المدينة غير زعيمات المؤتمر اللواتى أتيحت لى فرصة مقابلتهن فى كراتشى ؛ فنزلت من القطار ، وأنا مرتبكة بعض الارتباك ، فرأيت سادة المدينة يقفون فى انتظارنا ، ويتسابقون نحونا ، ليفوز كل منهم بدعوتنا قبل الآخرين ، فنكون ضيوفاً على بيته خلال انعقاد المؤتمر .

ولم يكن هناك بد من قبول الضيافة ، فتلك المدينة على كبرها وشهرتها ، لا تحوى شيئاً من وسائل الراحة ، ولا أثر فيها لفنادق الدرجة الأولى والثانية ، وكل ما هناك أنزال صغيرة لا يمكن سيدة أن تحتمل الحياة فيها .

ومدينة حيدر أباد السند موطن أغنى أغنياء الهند ، يخرج التجار الهنود منها ، فينتشرون فى جميع أنحاء العالم ، ويجمعون الملايين من تجارة التحف والحرير ، ومع ذلك فمهد الأغنياء هذا مهمل متأخر إلى درجة لم أر لها مثيلا فى المناطق الأخرى : فالطرقات غير معبدة ، مليئة بالأتربة والأحجار ، تقوم على جانبيها قنوات مكشوفة لتصريف المخلفات والمياه القذرة ، فتنبعث

من تلك القنوات روائح كريهة تفسد الجو، وتملؤه بأفواج الذباب.

وتكتظ تلك الطرقات بعدد لا يحصى من البقرات ، التى تضرب بأظلافها الأتربة ، وتثيرها فى الهواء ، وتسد بجموعها الزاخرة سبيل المرور فى أحيان كثيرة . ولقد اضطررت أكثر من مرة إلى الوقوف بالسيارة وراء جموعها المحتشدة ، حتى تتفرق من تلقاء نفسها ، وتسمح لنا بالمسير ، فمن المكروه فى الهند أن يتعجل الإنسان تلك الحيوانات المقدسة، ويفرقها بالدفع أو اللكز.

ولا أكون مغالية إذا ذكرت أننى مدة إقامتى بمدينة حيدر أباد السند لم أرتشف قطرة واحدة من الماء ، لأن الماء فيها مغبر عكر ، تستطيع العين المجردة أن تتبين فيه أتربة وأجساماً صغيرة سابحة . وعلى ذكر الماء أقول إنهم فى الهند لا يحبونه بارداً ، ولا يستعملون الثلج فى الشتاء على الرغم من دفء الجو فى هذا الفصل ، بل على العكس يسخنونه على النار أحياناً ، ويقدمونه دافئاً للشرب !

ولم أفهم فى بدء الأمر فلسفة عقد المؤتمر فى هذه المدينة ، لكننى عرفت فيما بعد أن الولايات تتناوب دعوة المؤتمر ، ويقوم سادتها بجميع نفقاته ؛ وكان الدور على السند ، وعاصمتها حيدرأباد .

وقام الأعيان فى الواقع بواجبهم على أكمل وجه ، فوزعوا الأعضاء على بيوتهم ، وأكرموا وفادتهن، وتنافسوا فى الكرم ، لينال كل منهم فخر الأسبقية على إخوانه ؛ فكانت موائد الإفطار تمد كل صباح ، وعليها من الأطعمة ما لذ وما ندر .

وكان من أبلغ مظاهر كرم مضيفى الهندوسى تقديمه البيض على المائدة ؛ فالهندوس لا يأكلون اللحم والبيض ، لأنهم يقدسون الروح ، والمتدينون منهم يحرمون طهى الصنفين . وكانت أم مضيفى من هذا الفريق ، وأراد ابنها أن يوفق بين إكرامنا ، وبين المحافظة على شعورها ، فلجأ إلى جيرانه ، فكان يطهى البيض في بيتهم ، ويحمله إلينا كل صباح !

وعند ما انكشف لنا هذا الأمر — وكما التلاث اللأنى جمع بينهن القطار — بذلنا المستحيل فى إقناعه بإهمال البيض، توفيراً للمشقة والعناء اللذين يكابدهما ، فأبى كل الإباء ، وظل إلى النهاية يحمل البيض بيده ، ولا يكلف الخدم ، خشية أن يتأففوا من القيام بهذا العمل .

و بيوت حيدر أباد أتسم بقلاع ضخمة : تبدأ عند الطريق بباب خشبى كبير ، يرتفع من خلفه سلم ذو درجات قصيرة متتابعة،

وتنتهى الدرجات بدهليز ضيق طويل يقود إلى درجات ودهاليز أخرى ، تؤدى إلى أجنحة البيت التى يعيش الأبناء فيها مع زوجاتهم وأطفالهم .

والبيوت على كبرها وضخامتها بسيطة فى الداخل ، ليس بها إلا الضرورى من الرياش والأثاث ، لأن أهل السند الأغنياء لا يعيشون فى مدينتهم بل يقضون جل العام فى بمباى ، أو فى خارج بلاد الهند ، و يعتبرون حيدرأباد موطن الآباء والأجداد ، ومن أجـل ذلك يزورونها شهراً كل عام على الأكثر ، و يبخلون بالنفقات على بيوتها المغلقة طوال السنة .

وكنا ننام فى هذه البيوت ، وتتناول وجبة الإفطار فيها ، أما الغداء والعشاء ففى مدرسة قريبة ، غصت أبهاؤها بالموائد الطويلة . وتنقسم الموائد قسمين : أحدهما للنباتيين ، وهم الهندوس الذين يحرمون أكل اللحم والبيض ، ويكتفون بالخضروات والبقول ، والقسم الثانى لغير النباتيين أمثالى من أصحاب الديانات الأخرى .

و يسير النظام فى الغداء والعشاء على الطريقة المتبعة هناك ، فتقدم إلى الآكلين ألوان لا عداد لها ، قوامهـا الأرز ،

و«الكارى» وهو اللحم المطهى بالتوابل اللاذعة، ثم الخضروات المختلفة، والفطائر المملحة، واللبن المختثر المحلى بالسكر، والحلوى على أنواعها. والطريف أنهم يطهون الأرز كما تفعل نحن، ولكنهم يقسمونه على أوان مختلفة، ويصبغون أرز كل آنية منها بلون، بعد ذلك يخلطونه فى الصحون، فتبدو تلك الصحون جميلة الشكل وهى مليئة بالأرز الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض.

ويختلف الخبز باختلاف ألوان الطعام، فلا يعطى مع الفطائر شىء منه، والخضروات عادة يصحبها الخبز الأوروبى، أما «الكارى» فيقدمونه مع «الچپاتى» وهى خبز مستدير الشكل، بالغ الرقة، يحمر فى الزبد حتى يتشبع بالدسم.

والهنود على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم يحبون مضغ «الپان» بعد الأكل و«البان» عبارة عن ورقة شجرة البان وهو نبات متسلق يوجد فى الهند. ويطلون الورقة بمادة شديدة المرارة فى لون العسل الأسود، ويرشونها بمواد يدخلها «الحبّهان» و«جوز الطيب» ومسحوق الجير إلى غير ذلك من المواد التى يتعاطونها هناك. وتطبق الورقة على شكل مثلث، وتقدم للراغبين. وتصطبغ الأسنان عادة بلون البان، ولذلك يلاحظ أن أسنان

الموسرين محمرة اللون ، أما أسنان الفقراء فتكاد تكون سوداء لأن الموسرين ينظفون أسنانهم بطبيعة الحال كل صباح ، وهو أمر غير ميسور للفقراء .

ولقد مكنتنى الإقامة فى كراتشى وحيدر أباد السند من الاطلاع على بعض نواحى الحياة هنالك : فمن العادات الشائعة أن يتناول الناس طعامهم جالسين على الأرض ، فى صفوف متقابلة . وأمام كل جالس صحن نحاسى واسع يشبه « الصينية » فى بلادنا مع تفاوت يسير يتلخص فى انخفاض جوانبه . وترص حول الصحن أوراق أشجار مختلفة الأشكال والحجوم ، ويوضع الطعام الأساسى فى الصحن الأوسط ، والألوان الفرعية على ما حوله ، فالخبز مثلاً على ورقة التين ، و«المخلل» على ورقة المانجو ، والملح على ورقة التفاح إلى آخره ، مثلما تفعل فى الطريقة الحديثة المعروفة «بالسرفيس أمريكان » ! وقد لا يوجد الصحن النحاسى بالمرة وإذ ذاك يغرف الطعام فى قطعة كبيرة من ورق الموز . ويخلع الهندوس أحذيتهم خارج حجرة الطعام ، ويدخلون إليها حفاة ، لأن لتلك الحجرة حرمة خاصة .

هذه طريقة الأكل بين سواد الشعب ، ولكن الموائد

والصحون وغيرها من الأدوات ، مستعملة فى منازل الطبقات الراقية والمتوسطة .

والهنود جميعاً من هندوس ومسلمين ونصارى وسيخ وپارسى يفضلون تناول الطعام بأيديهم ، ولا يستعملون الشوكة والسكين حتى على ظهور أفخر البواخر التى تنقلهم إلى أوربا وأمريكا . ولا يصح أن نعزو ذلك إلى تأخر ، أو جهل بضرورة استعمال هذه الأدوات ، فقصور أغنيائهم ، و بيوت موسريهم عامرة بمختلف أنواعها الفاخرة ، و إن لم يستعملوها ؛ ولكنهم يأكلون بأيديهم ، لأنهم يؤمنون بأنها طريقتهم الوطنية الشرقية ، فلا يصح التخلى عنها من أجل عادات غريبة تافهة فى نظرهم . وتدفعهم هذه الروح أيضاً إلى التمسك بالزى الهندى ، ومن النادر أن ترى رجلاً منهم بغير سرواله الوطنى الأبيض ، أو امرأة لا ترتدى الصارى . وتفخر النساء الهنديات بالصارى ، ويذكرن عن عقيدة ثابتة أنه أجمل أزياء الدنيا ، وهى حقيقة ، فالصارى رداء رائع الجمال، يلتف حول أجسادهن الطويلة النحيلة فيزيدها رشاقة وجمالا .

وكان لظهورى بالزى الأوروبى رنة كبيرة من الدهشة فى

الهند ، وسألنى الناس تباعاً عما حدث لمصر ، حتى تترك زيها الشعبي ، وتتشبه بالغرب، فاضطررت عشرات المرات إلى توضيح هذه المسألة ، وأفهمتهم أنه لم يكن للمصريين ملبس خاص ، وثيابهم التى عرفوها قرناً بعد قرن مقتبسة من غيرهم ، بحكم العناصر المختلفة التى توالت على البلاد ، وبحكم موقع مصر الدولى !

ولم يكن لتوضيحى أثر كبير فى إقناعهم ، فكانوا يهزون رءوسهم أسفاً ، ويقترحون على أن أقوم بدعاية واسعة فى بلادى ، فأبشر بزى الصارى ، وأدعو المصريات لارتدائه . ولا أظن أننى سأقوم بتلك الدعاية ، فالصارى على جماله ثوب غير عملى ، لا يناسب امرأة تقتحم الحياة العامة وتشترك فيها ، فهذه الطبقات الحريرية الملتفة حول الجسد حتى أخمص القدمين تعوق الحركة ، وتضطر صاحبتها إلى البطء والحذر ، ونحن الآن فى زمن السرعة والسبق ، وعلى الواحـدة منا أن تشق طريقها فى الشوارع والسيارات العامة وعربات الترام ، مما يفسد الصارى ، ويقلب نظامه رأساً على عقب !

وقد لاحظت بمناسبة الأزياء الهندية ، أن الصارى يسير على نمط واحد لا يتغير ، فليس هناك مثلا صارى بسيط للصباح ،

وثان حريرى للعصر ، وثالث مرقش أنيق للمساء ، كما هو عرف الملبس المتبع فى كل مكان ؛ فالهندية المقتدرة ترتدى فى الصباح ما ترتديه فى المساء من ثياب مطرزة موشاة بالذهب والفضة ، فتبدو طيلة اليوم مثل عروس تتهادى فى ثوب زفافها .

وفى حيدر آباد السند شارع أنيق ، أطلق الناس عليه مجازاً اسم « طريق باريس » لأنه ملتقى شباب البلدة من الجنسين ، ومكان نزهتهم كل صباح ومساء ، فتسير فيه الفتيات زرافات ووحدانا ، فى أجمل ثياب وأتقن زينة ، وهو استعراض جدير بالمشاهدة ، لذلك قطعت « طريق باريس » أكثر من مرة ، لأرى جميلات السند يخطرن فى أروع الأزياء وأغلاها ، فإذا استرعت إحداهن الأنظار ، ذبلت عيون الأخريات حسداً وكمداً ! !

ويقوم فى نهاية « طريق باريس » منتدى صغير ، تحيط به حديقة غناء ، فرشت أرضها بالحشائش الخضراء . وفى هذا المنتدى يلتقى الأثرياء ، وتقام حفلات الزواج ، التى يبدأ عادة فى « شارع باريس » بنظرة فابتسامة فلقاء !

وحيدر آباد السند مركز هام لصناعة الحرير ، وتوزيعه فى

أنحاء العالم ، وتمتاز عن المناطق الأخرى ، بالأنسجة السندية الشهيرة ، المطرزة بنقوش حمراء ، والمرصعة بالمرايا الصغيرة ، فإذا ارتدت السيدات هذا النسيج ، وسرن به فى الطرقات ، انعكست أضواء الشمس على المرايا الصغيرة ، فتلتمع وتضىء كأنها ماسات !

٤

ذهبت إلى حيدر أباد السند من أجل حضور المؤتمر النسائى الهندى ، ولم أكن أعرف قبل ذلك قليلا أو كثيراً عن قيمة هذا المؤتمر ، ومبلغ نجاحه ، بل لم أكن أعرف شيئاً يذكر عن المرأة الهندية ، ومدى اهتمامها بشئون السياسة والمجتمع ، ولذلك لم أضع برنامجاً خاصاً ، ولم أقرر نوع الموضوعات التى سأتناولها بالحديث ، وتركت الأمر لحين وصولى ، واطلاعى على حقيقة الحال هناك .

دهشت جداً عند ما تبينت فى كراتشى أن حديث الهند قاطبة يدور حول المؤتمر ، وبخاصة أن معظم الدول الغربية قد اشتركت فيه ؛ فقد أقبلت مندوبات عن الولايات المتحدة الأمريكية ، وانجلترا ، ونيوزيلندا ، واستراليا ، والسويد ومصر ولبنان ؛ وهو

حدث جديد ، فلم يسبق أن اشتركت كل هذه الدول مجتمعة فى مؤتمر نسائى هندى .

وقد يكون السبب فى هذه الظاهرة اتساع الأفق السياسى خلال الحرب ، مما هيأ الأذهان فى مختلف الأقطار إلى ضرورة التعاون من أجل توطيد دعائم السلم العالمى المنشود .

وازداد سرورى عند ما قرأت برنامج المؤتمر ، ووجدت أن المرأة الهندية المتعلمة ستتناول بالبحث جميع مشكلات بلادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ وبذلك سهلت رسالتى ، فوضعت برنامجى ، وقررت أن تنال مشكلة فلسطين جهدى الكامل، لأنها فرصة لاتعوض أن نعرض القضية على مندوبات الغرب ، ونسمعهن وجهة النظر العربية التى قلما وصلت على حقيقتها إلى بلادهن .

ولم تكن مهمتى سهلة أو يسيرة ، فنحن نعرف ما بين الهندوس والمسلمين من عداء مستحكم ، يدفع كل فريق منهما إلى التخلى عن القضية التى يدافع عنها الفريق الآخر . وشاء الحظ أن تكون فلسطين من بين تلك القضايا التى لاتنال تعضيد الطرفين معاً ، فقد أعلن المسلمون فى الهند أنها مشكلة إسلامية بحتة ،

عليهم الدفاع عنها بتأييد العرب، وتوطيد حقهم الشرعى فى البلاد المقدسة. وقاموا فعلاً بجهاد مشكور، وبعث محمد على جناح زعيم الجامعة الإسلامية خطاباً إلى نائب الملك يستفسر فيه عن اتجاه السياسة البريطانية بخصوص فلسطين، فأجاب نائب الملك بخطاب رسمى يعد فيه بأن لا تتخذ حكومته قراراً قبل الرجوع إلى العرب واستشارتهم ونيل موافقتهم.

ولما سمع الهندوس بهذا الأمر تخلوا تماماً عن القضية الفلسطينية، ولم يظهروا اهتماماً بها، فتسربت وجهات النظر الصهيونية إليهم، ووجدت منهم استجابة وقبولا.

ولقد تبينت هذه الحقيقة لدى وصولى فخشيت أن أخفق فى رسالتى، لأن أكثر أعضاء المؤتمر من الهندوسيات، فقد انفصلت المسلمات عنه منذ سنوات بانفصال المسلمين عن حزب المؤتمر، فلم يبق فيه منهن غير عدد قليل لا يتعدى أصابع اليد، وهذا العدد يتكون من سيدات لا يدن بمذهب حزب الجامعة الإسلامية السياسى. لما تبينت ذلك قررت أن أقوم بدعاية تمهيدية واسعة، لأقنع الهندوس بخطأ ظنهم، وأفهمهم أن مشكلة

فلسطين قضية وطنية لا دينية ، يجب أن يؤيدها كل من ينشد العدالة ، ويطالب بحرية الشعوب الصغيرة .

وانتهزت فرصة الحفلات التى أقيمت لى ، والاجتماعات الصحفية المختلفة فتحدثت خلالها عن فلسطين ، وعن حق العرب الشرعى فيها ، ودحضت الادعاءات الصهيونية المنتشرة هناك ، فكان لأحاديثى أثر واضح ، ظهر على صفحات الجرائد فى صورة مقالات تلخص أقوالى . وأقبل الناس على قراءة تلك المقالات بشغف ، ورحبوا بوجهات النظر العربية ، فلم تمض أيام معدودات حتى كان الهنود على تباين عقائدهم يتحدثون عن فلسطين بعطف ظاهر .

وهنا آخذ على العرب تقصيرهم المخزى فى الدعاية لقضيتهم العادلة ، واقتصارهم على الخطب والمقالات التى لا تتعدى حدود بلادهم ، ولا تصل أبداً إلى آذان الغرب . أما الصهيونيون فلا يلقون من الخطب إلا قليلها ، وينفقون جهدهم الكامل وأموالهم الطائلة فيما هو أجدى من الخطابة ، فيقومون بدعاية واسعة ، وينشرون مطالبهم فى جميع أنحاء العالم ، فيؤازرهم الناس ما داموا لا يعرفون شيئاً عن أقوال الآخرين وحججهم . وأذكر أنه بعد

الخطابات التى ألقيتها فى المؤتمر ، والكلمات التى أدليت بها إلى الجرائد عن فلسطين أقبلت على بعض مندوبات الغرب فأبدين منتهى العطف على قضيتنا ، وسجلن اقتناعهن بشرعية المطالب التى ذكرتها ، وقوة الحجج التى عرضتها . وسألننى فى عجب كيف يسكت العرب كل هذا السكوت ، فلا يرسلون إلى العالم الخارجى من يعرض الأمر على محاكم الرأى العام ، وأهبن بى أن أطالب الزعماء ، عند عودتى إلى مصر ، بالاهتمام بناحية الدعاية الخارجية ، وقلن إن شعوبهن لو سمعت هذه الحجج لاقتنعت بها وأيدت العرب ، واضطرت حكوماتها لأن تقف موقفاً عادلا .

وجدت إلى جانب القضية الفلسطينية أموراً معقدة أخرى ومع خروجها عن نطاق منهاجى ، رأيت من واجبى أن أشرحها للرأى العام ؛ وأطلع الناس على حقيقتها ، فقد وصلت إلى الهند اتهامات تسىء إلى مواقفنا السياسية ، وتنشر هالة غبراء حول بعض الشخصيات الكريمة فى بلادنا .

وقمت بواجبى فى هذه الناحية ، فشرحت مواقفنا للصحفيين ، وأثبت لهم سلامتها ، وعددت لهم مآثر تلك الشخصيات

الكريمة التى أساءوا الحكم عليها ، ونصيب هذه المآثر فى رقى مصر وتقدمها ؛ فكانت الصحف تنشر بعض توضيحاتى ، وتغفل الإشارة إلى الكثير منها ، تجنباً لمتاعب الرقابة التى كانت ما تزال قائمة .

كان يوم افتتاح المؤتمر النسائى عظيما مجيداً ، فقد امتلأ السرادق المقام فى حديقة « الأكادومى » ، فكان به ما لا يقل عن خمسة آلاف نسمة بين رجال ونساء أقبلوا من جميع أنحاء الهند ليسهموا فى نجاح المؤتمر النسائى .

وكانت رئيسة الشرف « ساروجينى نايدو » الشاعرة العالمية أو بلبل الهند المغرد كما يسمونها هناك. ولقد نالت دواوينها الشعرية الانجليزية شهرة عالمية ، وانتقلت مؤلفاتها إلى الدنيا القديمة والجديدة



سروجينى نايدو بلبل الهند المغرد

فأصابت عالم القراء الأوروبيين والأمريكيين « حمى نايدو » ، فأقبلوا على تصفح ما خطت باهتمام وإعجاب ثم هبطت هذه الحمى تدريجاً ، كما حدث للشاعر « طاغور » من قبل .

وما زالت « ساروجيني نايدو » سيدة الهند الأولى ، لأنها لا تقصر جهدها على الشعر فحسب ، بل تشترك أيضا فى سياسة البلاد ، وتتزعم الحركات الوطنية ، مما جمع الناس حولها ، وأنزلها فى قلوب القادة منزلة كبيرة .

وقد ألقت الشاعرة المبدعة يوم الافتتاح خطاباً مرتجلا باللغة الإنجليزية هزت به مشاعر الحاضرين ، وبعثت السرور والتفاؤل فى النفوس ، فنالت من التحية شيئاً كثيراً . وتكاثرت عليها عقود الزهور المجدولة ، فوضعتها حول عنقها ، حتى كاد جسدها القصير البدين يختفى تحت أكوامها . والعقود عادة متبعة فى الهند يقدمها الناس دليل التقدير والتكريم والترحيب ، وهى مجدولة من الزهور والورود المونقة ، ومتصلة بأسلاك رقيقة من الفضة والذهب ، تشبه « التلى » الذى كان مألوفاً عند عرائس الجيل الماضى .

وكانت السيدة « هانسا ميتا » رئيسة المؤتمر العاملة ، فألقت

خطاب الافتتاح بلغة انجليزية بليغة ، تناولت فيه مشكلات الهند السياسية والاقتصادية والاجتماعية والوطنية ، فعالجت كلا منها بذكاء ومقدرة وسعة اطلاع .

وأحب أن أذكر بهذه المناسبة ، أن أهم خطابات المؤتمر كانت تلقى باللغة الإنجليزية ، فهذه اللغة متداولة فى الهند ومفهومة للجميع تقريباً . أما بقية الخطابات فكانت تلقى باللغات الهندية ، فلم نفهمها لعدم وجود مترجمات يشرحنها لنا .

وتوالت بعد السيدة «هانساميتا» مندوبات الدول الأجنبية ، فقدمت كل منهن تقريراً قصيراً عن جهود المرأة فى بلادها ، ومطالبها الملحة للحاضر والمستقبل ، فلما حان دورى تكلمت عن مصر بصورة شاملة ، وختمت حديثى بفلسطين ، فوجدت أن الاهتمام عام بالقضية ، وتعالى الهتاف للعرب ، فخرجت الجرائد فى اليوم التالى بآيات التشجيع ، مما أكد لى أن المؤتمر سيتخذ قراراً حازماً بخصوصها .

وتبدد الأمل بعد ذلك بأيام معدودات ، عند ما أحسست أن بعض العناصر الرجعية القليلة تحارب فكرة اتخاذ القرار ،

خشية أن يكون فى ذلك تأييد لوجهة نظر مسلمى الهند ، وهو ما لا يتفق مع الخصومة القائمة .

وكانت تلك العناصر على قلتها قوية النفوذ ، نخفت أن تفسد علىّ خطتى ، لذلك ضاعفت الجهد وواجهت اللجان المختلفة بأحاديث مطولة تشرح كل صغيرة وكبيرة من قضية فلسطين ، فكلل الله مسعاى بالنجاح ، واتخذ المؤتمر قراراً حازماً يقول فيه :

« بما أن هذا المؤتمر يقوم من أجل السلام ، وينكر فرض إرادة الأمم القوية على الضعيفة ، فهو يرقب فى قلق بالغ حالة فلسطين ، مهد العرب منذ قرون ، حيث بنوا ثقافتهم ، وعاشوا دائماً فى أمن وسلام وتسامح مع أصحاب العقائد الأخرى . ولهذا يعبر المؤتمر عن أقصى عطفه القلبى ، وتأييده التام ، لمطالب الاتحاد النسائى العربى ، من حيث إلغاء تصريح بلفور ، الذى يعد اليهود بوطن قومى فى فلسطين ، ضد رغبات العرب أهل البلاد الشرعيين . وهو يناشد الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا العظمى رفع هذا الظلم حالا » .

وقد أرسلت نسخ من هذا القرار إلى الدول العظمى وإلى الجامعة العربية .

وتوالت زعيمات الهند على المنصة ، فألقت كل منهن كلمة بليغة فى تأييد القرار ، فلما حل دور « لايدى رام راو » وهى من فضليات سيدات الهند ، وقفت أمام المذياع ، وأعلنت أنها تحملنى رسالة شفوية من نساء الهند إلى أخواتهن العربيات ، وتتلخص هذه الرسالة فى أن المرأة الهندية ، وقد عرفت الآن حقيقة القضية الفلسطينية ، ستتتبع أمرها بذات الاهتمام الذى تتتبع به قضايا بلادها ، وستحارب من أجلها إلى آخر نقطة من دمائها إذا اقتضى الحال .

وعند ما أخذ الرأى على القرار الفلسطينى ، أقرته الحاضرات بالاجماع ، ولم يتخلف صوت واحد عن التأييد .

كان القرار الفلسطينى واحداً من ستة وثلاثين قراراً أصدرها المؤتمر بصدد مشكلات الهند المختلفة . وفى الواقع أن نساء الهند ملأن قلبى بالإعجاب ، وهن يتوالين على المنصة كل صباح ومساء ، فيناقشن أعظم الموضوعات حيوية بحكمة وذكاء وسعة

اطلاع ؛ فكنت أحس فى بعض الأحيان أننى أمام عقول جبارة صافية ، لا بد أن تصل إلى أهدافها عما قريب .

ومن أهم الموضوعات التى اتخذ فيها المؤتمر قرارات حازمة وجوب استقلال الهند ، وتسليم مقاليد الحكم لأبنائها ، حتى تتمكن البلاد من النهوض على أسس متينة من الحرية والتقدم والإصلاح .

وناقش المؤتمر مسألة حريات الشعوب الصغيرة ، فأيد أندونيسيا وطالب بسحب القوات الهندية منها .

ونال جيش الهند الحرة كل التأييد والتعضيد ، فدعت المرأة الهندية إلى وقف محاكمة ضباطه الثلاثة ، و إطلاق سراح جنوده المسجونين .

وطالب المؤتمر برفع الرقابة القائمة ، وإطلاق حرية الصحافة والنشر ، والإفراج عن المعتقلين السياسيين

وهجمت نساء الهند على سوء الإدارة ، والإهمال الذريع فى اتقاء الأضرار التى نشأت عن فيضان البنغال ، وأدت إلى مجاعة ذهبت بأرواح الملايين .

وعالجت السيدات مشكلة نقص الكساء ، وقلة المنسوجات

فى الأسواق ، ولا سيما ما يقوم منها فى الأرياف ، مما نتج عنه انتحار بعض السيدات ، لعدم توافر الملبس لهن . وطالبن الحكومة بزيادة المصانع ، وتحديد الأسعار ، حتى تجاب مطالب الشعب ، ويوضع حد لجشع التجار .

ولقد أطلت فى حديث المؤتمر بعض الاطالة ، ولكننى أرمى بذلك إلى نقطتين : أولاهما توضيح الخلق الهندى ، فمشكلات المجتمع الخطيرة ، لم تخفف حدة شعوره بالأخوة نحو الشرقيين عامة ، والعرب خاصة ، فالهنود يعتبروننا أخوة أشقاء ، وينظرون إلى مشكلاتنا باهتمام ؛ ويتتبعون أخبارنا بشوق . أما النقطة الثانية فهى إعطاء فكرة صحيحة عن المرأة الهندية المتعلمة ؛ وما تستطيع القيام به إذا تهيأت لها الفرصة ، ولا شك أنها تستطيع عمل الكثير ؛ فهى بارزة الشخصية ، سامية التفكير ، مستقيمة المنطق تدرس مشكلات بلادها فى حذر ، فتتبين مواطن العلة ، وتعمل على علاجها بطرق تتمشى مع سياسة العالم المتمدين ، مع التمسك بالقومية الطيبة ، التى لا تتعارض هى وروح العصر الحديث .

وأعتقد عن ثقة أن مشكلات الهند الخطيرة ، التى تستنفد جهد الرجال ، وتشغل أذهانهم عن قضايا الوطن ، لو تخلوا عنها ،

ووكلوا أمرها إلى المرأة ، لوجدت لها الحلول المرضية ، ولكان للهند شأن آخر ؛ فالهندية أسمى من مواطنها ، من حيث الشخصية والإرادة والحكمة والحيوية ، وهى ملاحظة استرعت أنظارى ، وأنظار كل غريب يزور هذه البلاد .

والتعاون مع المرأة الهندية المتعلمة يأتى بالخير العميم ، ولكننا معشر النساء المصريات لا نستطيع أن نتخذ خطوة كهذه فى الوقت الحاضر ، فعلى الرغم من أننى حملت رسالة كتابية حارة ، لرئيسة الاتحاد المصرى ، تناشدها فيها زعيمات الهند تكوين جبهة منا ومنهن ، غير أن الخلاف الطائفى القائم هناك يحول بيننا وبين الانحياز لأحد الفريقين ضد الآخر . وإلى أن يتصافى المسلمون والهندوس لن نقبل بحال من الأحوال تشكيل الجبهة المنشودة ، حتى لا يتفاقم العداء ، فتدخل بلادنا فى الخصومة القائمة .

وأحب هنا أن أعتب على العرب لإهمالهم شأن إخوانهم الهنود ، وجهلهم العظيم بشئونهم ؛ فاذا ذكرنا الهند طافت بأذهاننا شتى الغرائب والطرائف ؛ كأن الغرائب والطرائف هى كل ما تحويه تلك البلاد الواسعة ، فى حين أنهم يعرفون عنا الكثير ، و يحملون لنا حبا واحتراما وإعزازا ، و يتتبعون قضايانا بلهفة . وهذه المودة

والأخوة لا تجد صدى فى صدورنا، مع أنه تربطنا بهم روابط شتى من اللون والشرقية وبعض العادات والمحن الماضية والحاضرة.

٥

كنت أعتقد دائماً أن المرأة لا تستطيع أن تقوم بعمل وطنى يذكر إلا إذا نالت من الحقوق الحيوية ما يكفل لها الأمن والاستقرار ، لأن الحياة فى نظرى أخذ وعطاء ، ولذا يتحتم على المجتمع أن يعطى إذا أراد أن يأخذ من الفرد جهداً ما .

هذه — على الأقل — هى القاعدة التى ينبغى أن يقوم عليها كل مجتمع متمدين ولكننى وجدت غيرها فى الهند ، فالمرأة المتعلمة هناك تقوم بواجبها الكامل نحو بلادها ، وتسهم فى بناء صرح وطنها، وتأخذبيد المجتمع لتعينه على السير قدماً ، مع أنها محرومة من كثير من الحقوق التى تتمتع بها أختها فى البلاد الأخرى ، فالمجتمع الهندى جشع إذاً لأنه يأخذ دائماً ولا يعطى شيئاً مقابل ما يأخذه !

والعجيب أن المرأة الهندية لا تحقد على مجتمعها من أجل ذلك ، بل تؤدى رسالتها فى تسامح وسخاء ، وتطالب بحقوقها فى

الوقت نفسه ، ولا تتوخى الشدة فى المطالبة؛ وهو سلوك لا أقرها عليه ، فالتهاون فى مثل هذه الأمور لا يأتى بالنتيجة المرجوّة ، والحقوق لا تكتسب بالتسامح ، بل بالجهاد والشدة والصراع .

وقد أكون مخطئة فيما ذكرت ، ولكن لكل منا منطقه الذى يؤمن بصوابه ، ومنطقى يقول إن المجتمع الذى يسلب المرأة حقوقها الحيوية يقوم على عنصر كريه من أنانية الرجل ، لا يحدّ من جبروتها غير أنانية أشد وأقسى .

ولست أرى داعياً لأن تتفانى الهندية فى خدمة مجتمعها، فلا تنال منه جزاء ولا شكوراً ، وتقابل بالنكران والجحود فى كل مكان ؛ بدليل أن الهنود على اختلاف ألسنتهم وعقائدهم يتفقون معاً على نقطة واحدة وهى اضطهاد المرأة ، وغبنها من حيث مركزها الاجتماعى !

ويكفى لإثبات ذلك أن نستعرض حالة المرأة فى كل طائفة من طوائف الهند ؛ فأكثر الشعب هناك من الهندوس .

والديانة الهندوسية لا تعترف بمكانة النساء ، ولا تقر لهن فى المجتمع مقاماً جليلا ، وتعتبر الرجل إله المرأة الذى حق عليها عبادته ، واحتمال قسوته دون شكوى أو تذمر ، فهى ظله ، ولا

يصح للظل أن يسمو إلى مكانة الأصل .

ومن أجل ذلك كانت الزوجة الهندوسية فى الماضى تُحرق يوم وفاة زوجها وتدفن معه ؛ فتقبل على « المحرقة » التى اجتمع حولها الأقارب والأصدقاء وتقتحم نيرانها باسمة ، وذلك دليل الرضا والقبول، فإن تراجعت حلّ العار بأسرتها، فتنبذها لتعيش ما تبقى لها من الحياة طريدة شريدة .

وظلت هذه الشرعة متبعة قروناً وأجيالاً حتى تنبه المصلحون إلى ما تنطوى عليه من وحشية، فقاموا ينادون بإبطالها، و بوضع القوانين التى تحرمها ، ونجحوا فى حملتهم ، فمنع القانون حرق الأرملة وإن حرم عليها الزواج ثانية إرضاء للرأى العام !

ومنع زواج الأرملة إجحاف بالمرأة الهندوسية ، لأن زواج الأطفال كان معروفاً هناك إلى عهد قريب ، فكان من حق الوالد أن يزوج ابنته وهى فى السنة الأولى من عمرها لصبى فى مثل سنها ، ثم يعطيها أهل زوجها ، فيحملونها معهم إلى بلدتهم لتنشأ مع قرينها جنباً إلى جنب ، فتعتاد أخلاقه ، وتألف عادات أسرته. وكان يحدث فى كثير من الحالات أن لا يأتلف الطفلان بل يتنافران منذ بادئ الأمر فتصبح حياتهما حياة شقية لاخلاص

منها إلا بالموت . وكان يحدث أيضاً أن يموت الزوج الصغير بعد مرض من أمراض الطفولة ، فيتحتم على عروسه وهى ما تزال في المهد أن تعيش أرملة إلى الأبد ، وأن تتجرع كأساً مريرة من الذل لأنها جلبت الشؤم على البيت فمات الابن بعد دخولها فيه!

وقد منع القانون الحديث الزواج بين الأطفال ، ووضع له الرابعة عشرة سناً أدنى ؛ ولكن مشكلة الأرامل لم تحل بعد ، فما زال فى الهند عدد كبير من « الأرامل البكر » كما يسمونهن هناك ، يعشن عذارى ، ويمتن عذارى ، مهما بلغ بهن الشباب والجمال .

ولا شك أن القانون المدنى الإنجليزى قد خفف وطأة هذا الأمر قليلاً ، فأصبح فى مقدور الأرملة أن تلجأ إليه ، وتعقد زواجها فى مكاتبه ؛ ولكن مثل هذا العمل نادر جداً ، لأنه يتطلب شجاعة أدبية هائلة ، لمواجهة ثورة الأسرة ، واحتقار المجتمع الهندوسى .

وينادى المصلحون فى الوقت الحاضر بوجوب زواج الأرملة إن أرادت ، ووضع بالفعل قانون يبيح ذلك ، ولكن القانون لم يتقرر العمل به رسمياً إلى الآن ، بسبب العقبات التى تقوم فى

طريقه ، واعتراض الرجعيين ، ولهم فى الهند نفوذ كبير .

والمرأة الهندوسية لا ترث أبداً ، فإن توفى زوجها أو والدها لا تصيب شيئاً من ماله مهما عظم ؛ وتضطر فى مثل هذه الحالة لأن تعيش كلاً على أفراد أسرتها ، اللهم إلا إذا كانت متعلمة ، وأرادت الاستقلال ، فإذ ذاك تقتحم الحياة العملية ، وتكتسب رزقها بعرق جبينها .

ومن أجل ذلك تقبل الهندوسيات على التعليم بشغف ، فتكون الأمية بينهن أقل منها فى المسلمات ، ولكن نسبة التعليم مازالت ضئيلة ، والمثقفات قليلات ، وأكثر النساء يذقن الأمرين من جراء هذا الغبن الاجتماعى الصارخ ؛ مما يدفع أرامل كثيرات إلى الانتحار بالسم أو النار ، فآلام الموت تهون أمام ما ينتظرهن فى الحياة !

ولا تقف آلام الهندوسية عند هذا الحد ، بل تتعداه إلى تقاليد الزواج ، فهى تخطب الرجل ، وتمهره مبلغاً من المال يرتفع أو ينخفض تبعاً لارتفاع أو انخفاض مركزه ، فلكل رجل ثمن محدد ، قد ينخفض إذا كانت المرأة على نصيب يذكر من الجمال .

والعادة الشائعة أن يبعث أهل الفتاة رسولاً لخطبة الشاب الذى يختارونه ، فتدور المباحثات المالية أولاً ، وعليها يتوقف مبدأ القبول أو الرفض . ويغالى شباب الهندوس فى تقدير الصداق مغالاة جعلت من الزواج تجارة رابحة ، دفعت ببعض الآباء إلى الانتحار ، لعجزهم عن توفير المال اللازم لزواج بناتهم .

وعلى العروس أيضاً إعداد حاجياتها من أثاث وأدوات فضية وملابس حريرية : فمن الأثاث فرش غرف المنزل ، ومن الأدوات الصحون والملاعق والسكاكين وأوانى الزهور ، ومن الملابس عدد من ثياب المصارى يبدأ بواحد وثلاثين ، ثم يرتفع إلى واحد وأربعين ، فواحد وستين ، فواحد



مثل من أمثلة الجمال الهندى

ومائة ، فواحد وألف ، تبعاً لمركز العروس ومبلغ ثراء أهلها !

وطبيعى أن يفرح الهندوسى إذا رزق صبياً ، وأن يغتم كل الغم بالبنات . فالصبي يجلب ثروة طيبة ، الخراب فى أعقاب زواج بالفتيات . وقد لاحظت أيضاً أن الابنة الجميلة تتمتع بمعاملة أفضل من أختها القبيحة ، لأن الجمال يخفض الصداق ، والقبح يضاعفه !

والروابط العائلية شديدة فى الهند إلى حد يحرم الزوجة الشابة الحرية المحببة إلى كل امرأة ؛ فالمنازل كبيرة ، والأجنحة معدة لحياة الأبناء بعد الزواج ، فيعيش خمسون شخصاً فى بيت واحد مثلا ، و يتقيدون جميعاً بتقاليد رب الأسرة ، ولا يفعل أحدهم إلا ما يحلو لعميد البيت أو عميدته .

وللأم سلطان كبير على زوج ابنها ، فلا تجلس أمامها دون استئذان ؛ ولا ترفع فى حضرتها الغطاء عن رأسها ، ولكن هذه التقاليد قد خفت وطأتها كثيراً بين القلة المتعلمة .

أما الهندية المسلمة فقد منحها الدين حقوقاً كثيرة ، ولكنها لا تستفيد منها ؛ فبحكم الجيرة والحياة المشتركه اقتبس مسلمو الهند بعض العادات الهندوسية، فهم مثلا لا يورثون المرأة عملا بقانون

« التقاليد » فإذا التجأت إلى المحاكم تطلب نصيبها ، لا تجد من يعير قضيتها اهتماما ، لأن قانون التقاليد قائم معترف به رسمياً فى البلاد .

وقد حدث أخيراً بعض التعديل ، فأعطى المسلم حق اختيار القانون الذى يطبق على ورثته بعد وفاته ، فإن أوصى كتابة بقانون الشريعة ورثت المرأة طبقاً لتعاليم الدين ، وإن لم يوص وهو ما يحدث غالبا — طبق قانون « التقاليد » ، ولا فائدة بعد ذلك من الجدال والمقاضاة .

ويدل هذا التصرف على أن مسلمى الهند لا يفهمون روح دينهم الحق ، وإلا لنفذوا تعاليمه الجوهرية ، وحققوا العدالة الإسلامية التى هى فى نظر الحق والإسلام أهم من الاقتصار على أداء فريضة الصلاة ، وصيام شهر رمضان !

ويقف الحجاب أو « البردّا » عقبة كئودا فى طريق تقدم الهندية المسلمة ، وهو حجاب عجيب ، يلتف حول الجسد ، ويغطيه من قمة الرأس الى أخمص القدمين . وأمام العينين فتحتان صغيرتان ، تغطيهما طبقة من النسيج الشفاف ، لا يكاد البصر يتبين من خلالها شيئاً . وبعض النساء لا يكتفين بهذا الحجاب

فإذا ركبن عربة غطين مقدمها بقطعة كبيرة من النسيج الثقيل حتى لا تقع أبصار المتطفلين على حجاب من يجلسن فى الداخل . وإذا عرفنا أن شتاء الهند دافىء قصير ، وأن صيفها طويل قائظ أمكننا أن نتصور الهندية المسلمة ، وهى تتصبب عرقا بين طيات كفن الأحياء الذى ترتديه ؟

ويحول الحجاب دون التحاق المسلمات بالمدارس ، والمساهمة فى شئون المجتمع ، ولذلك يتفشى الجهل بينهن ، وتكون نسبة التعليم فيهن أقل منها فى الهندوسيات . ومما يدعو الى السرور خروج الطبقة المتنوره على « البردا » ، وإقبال نسائها على الثقافة وخدمة المجتمع ، فبرز منهن سيدات لعبن أدواراً مجيدة فى الجهاد السياسى والاجتماعى . ومن بين هؤلاء « بيجام شاهنواز » التى اقتحمت أكثر من معركه انتخابية ، فخرجت ظافرة منتصرة ، وأصبحت عضوا عاملا فى المجلس التشريعى . وهناك أيضا « بيجام جناح » شقيقة محمد على جناح زعيم حزب الجامعة الإسلامية ، وهى تقود الحركة السياسية بين السيدات وتوجهها توجيهاً صالحاً ؛ ولكن مثيلات بيجام شاهنواز و بيجام جناح قليلات جداً مع الأسف .

ولقـد لاحظت أن بعض القرويات الهندوسيات يتحجبن « بالبردا » أيضا ، فعجبت لأن دينهن لايفرض ذلك فلما سألت عن السبب قيل لى إنهن اقتبسنه من المسلمات ، فأصبح عادة متبعة بين بعض الأسر القروية . ويرجع السبب فى اقتباسه إلى الأمراء الذين حكموا المقاطعات فى قديم الزمن ؛ وكان بعض هؤلاء شهوانياً ، يعيش من أجل الملاذ ، فإذا رأى أحدهم وجهاً جميلاً أمر باحضار صاحبته الى القصر ولو كانت متزوجة . وتكررت المآسى، وتعاظم البلاء، فحجب هندوس تلك المقاطعات نساءهم ، لتعجز عين الحاكم الشرير عن تمييز الوجه الجميل من القبيح ! وعلى مر الأجيال زال خطر الأمراء من هذه الناحية ، ولكن الحجاب أصبح عادة متبعة لدى بعض القرويين من تلك الطائفة.

وفى الواقع أن حالة المسلمين فى الهند أثارت فى نفسى كثيراً من التأملات،وأعادت الى الذهن ذكريات بلاد أخرى شاهدتها، فحزنت لتأخر عامة الشعوب الإسلامية ، وتقهقرها فى ميدان المدنية والتقدم .

وعندى أن جوهر العلة فى ذلك جهل المسلمين بحقيقة روح دينهم ، وإساءة تطبيق تعاليمه ، باهمال شأن الأوطان ، وحرمان

المرأة من العلم ، وتقييدها بالحجاب وغيره من الخزعبلات .
والنتيجة أن تأخر المسلمون فى موكب الحضارة ، واحتلوا منه مكان الذيل ، فأساءوا الى أنفسهم ، وجلبوا الاتهامات لدينهم ظلماً ، فنظر العالم المتمدين الينا ساخراً وقال: إننا متأخرون لأننا مسلمون !

ودينا المجيد برىء من كل ذلك ، فقد رسم لناحياة لاتتوافر لغيرنا ، ومنحنا من الشرائع الرشيدة ما يكفل لنا العدالة والرقى والتقدم ؛ واعترف بمقام المرأة الجليل فى المجتمع ، ومنحها من حقوق التعلم والتعليم والتجارة والزراعة ما يرفعها فوق هامات الأخريات؛ فأغمضنا عيوننا عن هذا الخير العميم ، واستعضنا عن الجوهر بالعرض ، وشغلتنا المظاهر والتمسك بالأعراض عن واجبنا الحقيقى الذى يمليه علينا روح ديننا الحنيف ، ألا وهو خدمة بلادنا والعمل الدائب على ترقية أخلاقنا ، والسمو بمجتمعنا ؛ والإسلام الصحيح روح ومبادئ .

وفى الحق أن المسلم العارف لأصول دينه ؛ المدرك لروح تعاليمه من يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته ، فيؤدى الفرائض ويجاهد أيضا فى خدمة بلاده ورفع شأنها بالقضاء على الجهل

والتأخر ، ليرتفع بذلك شأن دينه فى أعين الآخرين . ألم يقل الله تعالى فى كتابه العزيز : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم « ليس خيركم من ترك الدنيا للاخرة ، ولا من ترك الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » ؟

هذا كلام الله سبحانه وتعالى، وحديث رسوله الكريم، وفى الإثنين دعوة تحض المسلمين على خدمة دنياهم والعمل لآخرتهم؛ فهل عمل المسلمون بقول الله ورسوله ؟ أعرف أنهم يقدمون لآخرتهم ، فيصومون شهر رمضان ، و يؤدون فريضة الصلاة، و يبنون الجوامع الكبيرة ، فبذلك يلمون شطراً واحداً من دعوة ربهم ، فأين نصيب الشطر الآخر ؟ وماذا عملنا لدنيانا ؟ ؟ إن شعوبنا تتخبط فى ظلمات الجهل ، ونسبة التعليم فينا هزيلة ، ولذلك تأخرنا وتخلفنا عن موكب الحضارة ، فسبقنا الغير ، وكنا أحق بمكان الصدارة . ولو أننا عملنا لدنيانا مثل ما قدمنا لآخرتنا، فاقتصدنا فى تشييد الجوامع ، لبناء المدارس ونشر التعليم ، أو أتبعنا سنة المماليك الذين كانوا يقيمون معهداً علمياً بجوار كل جامع بنوه ، لحسن حالنا ، وزايلنا جهلنا ، وتقدمت شعوبنا .

إن الإسلام دين البساطة، وحسب المسلم رقعة نظيفة من الأرض يصلى فيها ، فتكون صلاته مقبولة عند ربه ، كما لو صلى فى أكبر الجوامع وأفخرها . ألم يقل الله تعالى فى كتابه العزيز « ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا ، فثم وجه الله » . ولكن المدارس لا يمكن أن تقوم فى أى رقعة نظيفة من الأرض فحسب ، ونشر الثقافة ومحاربة الجهل يتطلبان تشييد دور العلم ، وتخصيص الأموال للانفاق عليها ، وهى فرصتنا الوحيدة للتقدم والرقى ، ولنا من أجلها عند الله الأجر والثواب .

واعتقد أن الذين يأخذون الإسلام على أنه صوم وتسبيح و بناء مساجد فحسب، ينأون عن روحه الصحيحة التى يؤيدها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

واستميح القارىء عذراً لجنوحى عن الموضوع ، ولكن الذكرى تحرك الشجون ، وتثير الغضب على من يؤذون خير الأديان ، وهم لا يشعرون .

نعود الآن إلى حديث النساء فنقول إن « البارسى » أو عبدة النار فى الهند فئة صغيرة إذا قيست بالمسلمين والهندوس ،

ومع ذلك فهى جماعة هامة لا يصح إغفال شأنها، لمهارة أفرادها، وتفوقهم فى ميادين التجارة والصناعة ؛ فدانت لهم كنوز البلاد، واقتنوا ثروات لا تحصى أموالها ولا تعد .

وللمرأة « البارسى » من الخصائص ما يميزها من غيرها ، فهى بيضاء اللون والدماء الفارسية التى تجرى فى عروقها أثر فى هذا . وبفضل اتساع ذهن البارسى وتسامحهم حسن مركز نسائهم ؛ وبفضل المال الوفير تفتحت أمامهن أبواب العلم ، فاخترن الأجنبي منه ، وتخرجن فى الجامعات الانجليزية بنجاح ، ولـكنهن مع الأسف اتبعن خطوات أهل طائفتهن من حيث التشبه بالسكسون فى الحياة والتصرفات وأسلوب الحديث والتواء اللسان !

وقد يكون السبب فى تعلق المرأة البارسى بأهداب الأجنبى، ما يمليــه شعور الأقليات من تصرفات شاذة فى بعض الأحيان؛ وقد يكون السبب أيضاً وفرة المال ، فامتلأت بالغرور، وأحست أنها ترتفع فوق مستوى مواطنيها ؛ ولـكن النتيجة على كل حال أن فقدت ميزاتها كهندية حرة ، وأصبحت مخلوقاً عجيباً ، ما هو بالأوروبى ، لاختلاف اللون والتقاطيع والعبادة والعادات ،

وما هو أيضاً بالهندى ، لشذوذه عن الحياة المألوفة عند الهنود .

ولا شك أن تشبه البارسى رجالا ونساء بالأوروبيين ، وتعلقهم بأهداب المدنية السكسونية ، قد أبعد قلوبهم عن الهند ، وشغلهم عن قضاياها الوطنية .

وفى الهند فريق آخر من الشعب يبعث وجوده الحزن والرثاء ، وهو فريق المولدين ، أنصاف الهنود وأنصاف الأوروبيين ، ويعرفون هناك باسم « الأنجلو إنديان » . وهنا أحب أن أوجه النظر إلى أن هذا الإسم لا يطلق أبداً على من كانت أمه انجليزية ووالده هندياً ، فان هذا يعتز بهنديته ، ويعتبر هذا الإسم إهانة لا تغتفر؛ وإنما يطلق فقط على من كانت أمه هندية ووالده إنجليزياً .

وكان هذا الفريق — أى نتاج الأم الهندية والأب الإنجليزى — ينظر إلى إنجلترا كوطنه وبلاده ، وظل على هذا الشعور أجيالا ، مما أفقده احترام الهنود وصداقتهم ؛ ولكن الإنجليز أنكروه ولم يعترفوا قط بانجليزيته ، فعاش أهل تلك الفئة حيارى ، لا يعرفون لأنفسهم وطناً أو مصيراً .

ويعانى نساء الأنجلو إنديان احتقاراً اجتماعياً شاملا، فالانجليز يزدرونهن ، والهنود يمقتونهن ، وأبواب المجتمع والوظائف المحترمة

مغلقة فى وجوههن ، فكانت النتيجة أن انحطت أخلاق بعضهن انحطاطاً شديداً ، وساء سلوكهن ، وتمرغن فى الرذيلة ، فازددن شقاء على شقاء .

هذه نظرة إجمالية تشرح لنا حالة نساء الهند على تعدد عقائدهن وأجناسهن ، وترينا أن المرأة فى تلك البلاد ما زالت محرومة من حقوقها الاجتماعية التى تكفل لها التقدم والأمن والاستقرار .

ولكن الهندية مع حرمانها من ذلك ، تتمتع بحق التصويت والانتخاب ، وهو تاج الحقوق الذى لا تناله المرأة عادة حتى تستكمل مطالبها الحيوية الأخرى . ومن دواعى السرور أن الهندية تمارس هذا الحق بشجاعة واستقلال فى الرأى ، غير متأثرة بعوامل داخلية أو خارجية . وقد قابلت سيدات أعطين أصواتهن فى الانتخابات من يخالفون أزواجهن فى الرأى والمبدأ ، فضربن بذلك مثلا أعلى فى فصل السياسة والصالح العام ، عن العلاقات الزوجية وصلات القربى والرحم .

٦

من أبرز ما يراه المسافر إلى الهند فى الوقت الحاضر يقظة سياسية جديدة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ تلك البلاد ، فقد صُوِّر لنا الهنود فى الماضى صورة المستسلم الراضى ، حتى أساء العالم الخارجي حكمه عليهم ، وظن الناس خطأ أن الاستسلام والرضى طبيعة فيهم . والحقيقة أن الهندى ليس مستسلماً أو ذليلا بل هو أبىّ جسور ينشد الحرية ، ويتوق إليها كغيره من أبناء الشعوب الأخرى ، فإن كان قد خضع واستكان ، فقد فعل ذلك مضطراً أمام مشكلات اجتماعية معقدة ، شغلت ذهنه عن قضية بلاده .

وفى الهند الآن يقظة سياسية شاملة ، فالنفوس ثائرة على الاحتلال ، والشعب أجمع يسعى إلى تحطيم تلك الأغلال التى أذلته طويلا ؛ وإن انقسم الناس فريقين : أحدهما — وهم الهندوس — يطلب الاستقلال بلا قيد ولا شرط ، والآخر — وهم المسلمون — يضع لذلك الاستقلال بعض القيود والاشتراطات التى يراها لازمة لحفظ كيانه ، وتأمين نصيبه من العدالة الاجتماعية .

وبلاد الهند مدينة بهذه اليقظة للحرب العالمية الثانية ، فقد جُندت منها جيوش قوامها مليونان ونصف مليون مقاتل ، وأرسلت تلك الجيوش عبر البحار إلى عالم كان الهنود يجهلونه من قبل ، فنزلوا بلاداً تتمتع شعوبها بالحرية والاستقلال ، ورأوا كيف يكون الحال عندما يحكم الشعب نفسه ، وعندما يحكمه أجنبي تحول مصالحه الشخصية دون التقدم والإصلاح .

وحمل الجيش الهندى رسالة الحرية إلى بلاده ، فآمن الكل بها ، ووازنوا بين أنفسهم ، وبين غيرهم ؛ وخرجوا من الموازنة بنتيجة تقول: إن حالتهم الحاضرة لن تصل بهم إلى التقدم والرقى .

وليس أدل على اليقظة الشاملة ، ومبلغ قوتها فى بلاد الهند ، مما حدث لجيش الهند الحرة ؛ فعند ما حارب الحلفاء فى سنغافورة ساعدهم جيش هندى كبير يرأسه ضباط ثلاثة أحدهم مسلم والثانى هندوسى والثالث سيخ ، فلما سقطت سنغافورة بقواتها فى يد اليابانيين ، عرض هؤلاء على الجيش الهندى أن يحارب فى صفوفهم ، مقابل وعد كتابى باستقلال الهند ، وتحريرها تماما عند النصر .

وقبل الهنود عرض اليابانيين ، وانضموا بقواتهم إلى صفوفهم

وأطلقوا على أنفسهم اسم الهند الحرة ؛ فلما سقطت سنغافورة ثانية فى يد الحلفاء ، أسروا الجيش الكبير ، وسجنوا جنوده ، وقدموا جميع ضباطه إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى .

وكان الأمر سينتهى بهم حتما إلى الإعدام ، لولا أن قام الشعب الهندى قومة واحدة ، واجتمعت جهود الهندوس والمسلمين والسيخ ، للمطالبة بإطلاق سراحهم حالا ، بحجة أنهم حاربوا مع اليابانيين رغبة فى تحرير الهند ، وهى رغبة تملأ قلب كل هندى ، فإن كانت تلك الرغبة جريمة فليحاكم أهل الهند جميعاً !

وقامت المظاهرات فى كل مكان ، واشتبك القائمون بها والحاكمون فى معارك دامية ، فأطلق الرصاص ، ومات كثيرون ، فلم يثن الموت الهنود عن جهادهم . واشتد ضغط الرأى العام ، وتفاقم الغضب والسخط ، حتى أنذرت الحالة بقرب وقوع ثورة أهلية خطيرة .

وقامت المرأة الهندية فى هذا الجهاد بقسط كبير ، فتصدرت صفوف المجاهدين ، وتزعمت حركة إنقاذ الجيش ، وناقش المؤتمر النسائى فى هذه النقطة ، وأصدر قراراً حازما يشارك به الرجال

فى استنكارهم للمحاكمة ، ويطالب بحرية الضباط والجنود .

وأجيبت الرغبة العامة أثناء إقامتى بالهند ، وأوقفت المحاكمة فعلا ، وأطلق سراح القادة الثلاثة وضباطهم . ولا أظن أننى سأنسى ذلك اليوم ما حييت ، فقد خرجت الجماهير هاتفة مهللة ، وازدانت البلاد بالأعلام والمشاعل والأنوار ، ووضعت الشموع الصغيرة الموقدة متقاربة على أرصفة الشوارع ، وبين غصون الأشجار ، فبدت مدينة دلهى ، وكنت بها إذ ذاك ، متناهية الروعة والبهاء .

وعند ما عدت إلى مصر قرأت فى الصحف أنباء من الهند تشير إلى إعادة محاكمة القائد المسلم وأحد الضباط من بنى دينه ، فلما استفسرت عن السبب علمت أن إيقاف المحاكمة كان خطوة جريئة من جنرال أوكنلك حاكم الهند العام .[1] وقد قام بهذه الخطوة مدفوعا بعطفه الظاهر على الهنود ، وتقديره الكامل للشعور الذى يدفعهم إلى وقوف مثل هذه المواقف ؛ وهو التقدير الذى جمع حوله قلوب الهنود جميعاً ، مع أنه يمثل المستعمر الذى يكرهونه . ويبدو أن جنرال أوكنلك أمر بإيقاف المحاكمة ، وإرضاء الهنود ، دون الرجوع إلى حكومته ، وأخذ مشورتها ،

ففوجئت بريطانيا بقراره المتسامح ، فثارت النفوس فى داوننج ستريت ، وراجعته حكومته بشدة ، مما اضطره إلى إعادة النظر فى قراره السابق ، وتهدئة الرأى العام فى بلاده ، بتقديم كبش الفداء فى شخص هذين الصابطين ، بتهمة جديدة أمكنه التوصل إليها و إثباتها ؛ وهى تهمة القسوة فى معاملة الجنود الذين رفضوا التعاون مع اليابان . وقد قامت الأدلة فى المحاكمة على أن الضابطين كانا يغاليان فى قسوتهما ، فيعلقان الجند الرافضين من أرجلهم ، و يأمران بجلدهم جلداً مبرحاً ، فحكم عليهما من أجل ذلك بالسجن بضع سنوات .

***

هذا مثل واحد من أمثلة كثيرة لليقظة السياسية فى الهند ، وللوعى الاجتماعى الذى كشف العشاء عن أعين الهنود ، فرأوا ما لم يروه من قبل ، وتبينوا مواطن الضعف ، فساد التذمر ، وعمت الشكوى ، وترددت بها الألسن ، وأفعمت القلوب برغبة جامحة فى التحرر ، حتى يصفو الجو ، وتنطلق أيدى المصلحين فى وضع المشروعات التى تعالج العلل الحاضرة ، وترفع شأن البلاد .

وقد لاحظت الثورة السافرة ، ورأيت القلق البالغ ، وسمعت

شكوات مريرة ، فتحدثت مع هندى كبير أعتقد أنه لا يبالغ كثيراً فى كلامه ، واستوضحته طبيعة الأمور التى يشكو الناس منها ، فسرد على كلاما طويلا ، أورد فيما يلى أهمه فى نظرى .

يقول صديقى الهندى : إن حالة الحكم فى البلاد لا ترمى إلى تقدم وإصلاح ، بل تعمل على بقاء العلات والعيوب ، حتى لا يرتفع للهنود شأن ، أو تقوم لهم قائمة ؛ فميزانية التعليم مثلا مقصورة على الأموال التى تجبى من الضرائب المفروضة على الخمور ، والهندوس وهم معظم الشعب لا يشربون الخمر ، والمسلمون وهم البقية لا يتذوقونها ، فالخمور المستهلكة إذاً قليلة فى الهند ، وأموال ضرائبها ضئيلة لا تكفى تعليم فئة صغيرة من الشعب .

وتبيح الحكومة الهندية تداول المخدرات ، وفى إمكان كل إنسان أن يشترى الأفيون من أقرب بدال إلى بيته ، ولهذا التساهل ينغمس فقراء الشعب فى هذه الرذيلة ، فتنحط الصحة العامة ، ويزداد هزال الناس جيلا بعد جيل ، ويبلغ بهم خمول الذهن والبدن حداً يمنعهم من القيام بأعمالهم على أكمل الوجوه .

وبلاد الهند مرتع خصيب لمختلف أنواع الأوبئة والأمراض،

فالتيفود والتيفوس والجدرى تنتشر انتشاراً فاحشاً ، ومع ذلك لا يوجد قانون يحتم الحقن والتطعيم لوقاية الأهالى ، والأمر متروك لرغبتهم الخاصة ، اقتداء بالنظام القائم فى الجزر البريطانية ، ولكن الجزر البريطانية لا تتعرض للأخطار بسبب عدم انتشار تلك الأمراض هناك ، وظهور حالة منها كل سنوات ؛ أما حالة الهند فتختلف عن ذلك ، فالجدرى والتيفود والتيفوس تفتك بأرواح عشرات الآلاف كل عام ، مما لا يقبل معه المنطق تطبيق قانون واحد على البلدين .

والهند على كبرها ، ووجاهة مدنها الحديثة لا تعرف نظام المجارى ؛ والفضلات تجمع فى مخازن يكسحها المنبوذون يوميا ، وفى ذلك إضرار بالصحة العامة ، وتعقيد لمشكلة هذه الطبقة من الشعب .

ونظام الحكم مشوه فى الهند ، فالبلاد تنقسم قسمين : أحدهما فى يد الإنجليز ، والثانى مقاطعات يحكم كلاً منها « مهراجا » أو « نظام » طبقاً للنظم الاقطاعية القديمة . و بعض هؤلاء الحكام عادل يعمل لخير شعبه ورفاهيته ، والبعض الآخر ظالم جائر يعيش من أجل المتعة وجمع المال . ولا تتدخل السلطات فى أمر

هذه المقاطعات ، وبذلك تشترى ولاء حكامها ، فيقرضونها مئات الملايين فى الحروب والأزمات . وقد أقرض أحدهم الحكومة البريطانية ثلثمائة وخمسين مليوناً من الجنيهات عند بدء الحرب العالمية الثانية ! !

هذه بعض النقط التى ذكرها محدثى الهندى الكبير ، وقد تكون صحيحة ودقيقة ، وقد يكون فيها كثير من المبالغة ، ولكنى سردتها كما سمعتها منه .

ومما لا شك فيه أن الاستعمار قد أصاب الهند بجراح بالغة ، لا يتحقق علاجها إلا بالاستقلال . والهند جديرة بالحرية ، فقد تألمت كثيراً واستغلت طويلاً ، ومع ذلك قامت في الحرب بدور مجيد كان عاملا أساسياً فى اكتساب النصر ، ورجحان كفة الحلفاء .

ولقد قاسى الهنود من أجل هذا الدور مالم يقاسه شعب آخر ، فقد جند منهم مليونان ونصف مليون مقاتل من خيرة الرجال وزهرة الشباب ، فكسبوا النصر بدمائهم ، وأتوا من ضروب الشجاعة ما عجز عنه غيرهم ، بدليل أنه فى معركة بورما استحق الهنود سبعة عشر وساماً من صليب فيكتوريا ، وهو أعظم أوسمة

البطولة والبسالة ، مع أن الذى وزع منها فى هذه المعركة عشرون وساماً فقط !

ولم تقتصر التضحيات على الأرواح ، بل تعدتها إلى النواحى الاقتصادية والحيوية ؛ فنى بدء معركة شمال أفريقية اشتدت حاجة الحلفاء إلى القضبان الحديدية ، فخلعوا من أراضى الهند ما يزيد طوله على ألفين ومئتى ميل ، مع شدة احتياج البلاد إليه ، بل إلى أضعاف أضعافه . وكانت النتيجة أن شلت حركة النقل للمدنيين ، فنقص الطعام وتعفن فى بعض المقاطعات ، وقد مات ملايين الناس جوعا فى مقاطعات أخرى ؛ وحادث مجاعة البنغال مازال ماثلا فى الأذهان !

ومن أجل الصناعات الحربية جندت الهند جميع مصانعها حتى ما يقوم منها فى أصغر القرى والدساكر ؛ فمونت الجيوش بالمعدات والآلات والأسلحة والذخائر ، وأرسلت ملايين الأطنان منها عبر البحار ؛ فمن الأنسجة القطنية مثلا أخذت الولايات المتحدة فى عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ ما يقرب طوله من سبعين ألف ميل !! وأخذت الصين أحد عشر ألف ميل ؛ هذا إلى مئات الآلاف التى أخذتها الدول المتحالفة الأخرى ! .

وقامت المصانع الهندية بصنع أربعة ملايين ونصف مليون مظلة من مظلات الهبوط . وأربعمائة مليون قطعة رداء عسكرى خاكية اللون ، وملايين الثياب الخضراء المستعملة فى حرب الغابات وخمسين مليوناً من الأحذية ، وكل هذه الأشياء من أقطان الهند وأصوافها وحريرها وجلودها .

وتناقص الكساء بين المدنيين بطبيعة الحال ، وخلت أسواقهم منه . فانتحر بعض النساء عندما عجزن عن إيجاد ما يغطى أجسادهن .

ولقد كانت الهند خلال الحرب العالمية الثانية قاعدة حربية هامة ، فأرسلت إليها قوات لا عداد لها من أمريكا وانجلترا وكندا وجنوب أفريقيه واستراليا والصين ، فاضطرت الحكومة الهندية لأن تبنى مساكن لهؤلاء النزلاء تسع مليوناً وربع مليون جندى ، وأقامت مخازن على أرض مساحتها إثنان وأربعون مليون قدم مربعة ، ومائتى حقل للطيران ، ومائة وثلاثين مستشفى كبيراً . وعمت بسبب ذلك أزمة المساكن ، واستحال بناء جديد منها ، لعدم توافر مواد البناء ، وأصبح المألوف أن نرى هناك أسراً طيبة تعيش فى الخيام ! .

والاستقلال هو مكافأة الهند الوحيدة ، التي يجب أن تنالها مقابل جهدها الجبار ، وتضحياتها الكبيرة ، ودورها المجيد طيلة سنوات الحرب والقتال .

ولا شك أن الشعب الهندى مجيد نبيل ، له من الصفات



جامعة بشاور الإسلامية

العظيمة ما يميزه ، وما يكفل له مستقبلاً فريداً . أما عيوبه فنتيجة الاستعمار والجهل ، وانتشار الأمية بين الناس، وعندما يسود التعليم وتضمحل تلك الأمية ، ستداوى الهند جراحها

بيدها ، وترتق التمزقات الكثيرة المنتشرة فى ثوب مجتمعها ، وإذ ذاك سيكون لها شأن كبير .

ونحن إذ نتكلم عن الأمية فى الهند ، فما ذلك إلا لأن الجهل يسود ثلاثة وتسعين فى المائة من أفراد الشعب ، والمتعلمون سبعة فى المائة فقط ، وهو عدد عظيم وإن قلت نسبته ، فالمتعلمون هناك ثلاثون مليوناً ، أى ضعف الشعب المصرى بأكمله .

وفى الهند جامعات ومدارس كثيرة ؛ فهناك من هذه المعاهد سبع وعشرون ألفاً وخمسمائة ، لمختلف أطوار التعليم ودرجاته ، منها ألفان وستمائة مدرسة ثانوية ، وعشرون ألفا ابتدائية ؛ وثمانية وتسعون معهداً صناعياً وفنياً .

وفى الهند سبع وعشرون جامعة ، بلغ بعضها من الرقى والتوسع ما يضعها فى مصاف خير الجامعات الأوروبية : كجامعات بومباى ، وكلكتا ، ومدراس ، وميسورى ، وناجپور وپاتنا ، وپنجاب ، والله آباد ، وبنارس ، ثم جامعة آجرا الإسلامية الشهيرة .

وتقع كل من هذه الجامعات فى وسط مقاطعة هامة بحيث

يسهل على الناس أن يقبلوا عليها من جميع أنحاء الهند ، فيرتشفوا فيها مناهل العلم العذبة .

وهذه المعاهد على كثرتها وتعددها قطرة فى بحر زاخر فأهل الهند أربعمائة مليون ، ومثل هذا العدد يحتاج إلى عشرات أمثال عدد المدارس الموجودة فى الوقت الحاضر .



جامعة بنارس الهندوسية

ولقد تبين الهنود — بفضل يقظتهم الحاضرة — مدى ضرورة العلم لتقدمهم، وإصلاح عيوبهم الاجتماعية حتى الطائفية

منها ، ولذلك يعملون على نشر المدارس ومضاعفتها فى أسرع وقت ممكن .

٧

لا أظن أنى شاهدت مدينة خلفت فى نفسى أثراً بليغاً مثل دلهى عاصمة الهند ، وسيدة المدن ، وقبلة السائحين الذين يتوافدون عليها من أجل مشاهدة آثارها ، ودراسة معالم تاريخها .

وتعتبر دلهى من أقدم مدن العالم ، فقد شيدت قبل روما ، وعرفت قبل عهد الإسكندر ، وظلت منذ ذلك الوقت محتفظة بجمالها ورونقها، فلم تنل الدهور المتعاقبة شيئاً من عزتها وجبروتها ، ولم تهز الأحداث التاريخية مكانتها ، فقد كانت دلهى أقوى من التاريخ ، فوقفت غير عابئة به مهما تقلبت أطواره وتباينت صفحاته .

ولا أظن أن أحداث المستقبل ، مهما عظمت ، ستؤثر على تلك المدينة ، أو تحنى رأسها ، فتكسر شوكتها ، فقوة دلهى لا تكمن فقط فى مبانيها الجميلة وآثارها الرائعة ؛ بل إن تلك القوة تنبعث أيضاً من موقعها الفريد ، فهى تمتد من الجنوب إلى

الشمال ، فتقع فى مهب الرياح الجبلية الطيبة التى تخفف كثيراً من وطأة صيفها الهندى القائظ ؛ فضلا عن أنها تقوم عند مفترق الطرق الهندية الهامة ، بحيث تستطيع أن تطل من برجها الشامخ على أنحاء البلاد المختلفة ، فتملك ناصيتها .

وتقع دلهى عند نهاية ممر كبير ، يجرى من الشمال الغربى ماراً بوديان نهر السند ، بين سلسلة جبال الهملايا ، وصحراء راجبوتانا . ويتسع هذا الممر عند وادى جومنا ، فيصبح سهلا كبيراً ، يتجه نحو الشرق ، ويمتد من الهند الوسطى إلى الجنوب ، فلا يعوقه عائق ، حتى خليج البنغال . وبفضل هذا الموقع الفريد غدت العاصمة مركزاً هاما تلتقى عنده الطرق الحديدية الرئيسية ، وتنتشر منه التجارة ، إلى أنحاء العالم الخارجى .

ولقد قامت فى الماضى محاولات عدة لمحو سلطان دلهى ، وإضعاف قوتها ، بإنشاء عواصم أخرى فى مناطق قريبة ، فباءت المحاولات بالخسران ، وهبت عوامل الطبيعة تحمى مجدها القديم ، فانتصرت العاصمة التاريخية بعد صراع قصير .

ولا يصح أن تعتبر دلهى مدينة واحدة ؛ فهى سبع مدن مندمجة متصلة ، لبعضها تاريخ مجيد ، ولبعضها الآخر ذكريات

محزنة ، ما زالت ماثلة للأذهان بفصل الآثار القائمة : فقد أقام مدنها السبع ملوك وأباطرة متعاقبون ، شاءت التقاليد أن يشيد كل منهم مدينة حديثة تعرف باسمه ، وتخلده على مر الزمن ؛ وعندما يتم بناء تلك المدينة ، تقام الاحتفالات الرائعة ، والأفراح الكبيرة ، ويشترك الشعب فيها ، فيشبع المحكوم غرور حاكمه ، ويشعره بما أتى من عمل مجيد .

ولا نستطيع أن نتكلم عن دلهى الحاضرة ، دون أن نذكر دلهى الماضية ، لحاضر المدينة وماضيها مندمجان بحيث لا يمكن التفرقة بينهما . وفى كل ركن منها يقوم أثر خالد ، يربط القديم بالجديد ، ويعيد إلى الذهن صفحات مجد تخللتها المآسى والأحزان .

وقد لا يمكن العودة بتاريخ المدينة إلى بدايته ، لأنها أقدم عهداً من أن يستطيع المؤرخ دراسة تلك الحقبة من الزمن ؛ ولكننا نعرف أنها كانت منذ عام ٣٨٠ ميلادية مدينة هندوسية صغيرة ، تعاقب على عرشها حكام هندوس ، منهم الامبراطور « تشاندرا جويتا » الذى ما زال اسمه منقوشاً على عامود حديدى تاريخى .

وظل الهندوس سادة المدينة حتى عهد «پريتفى راج» الذى اشتهر بقوته وشجاعته ، فكتبت أعجب الأساطير عن غزواته وفتوحاته ، ثم قلبت الأقدار له ظهر المجن ، فقتل فى معركته الأخيرة أمام محمد الغورى عام ١١٩١ ميلادية ، وبموته سقطت المدينة فى يد المسلمين ، فدخلوها منتصرين ظافرين ، وغدت منذ ذلك العهد عاصمة الهند الإسلامية .

وارتقت دلهى بفضل محمد الغورى ، وقفزت فجأة من مدينة صغيرة إلى عاصمة امبراطورية كبيرة ، تتوالى فيها العهود الإسلامية . وزال عنها شر المغول الذين أقلقوا بلاد الهند طويلا وأنزلوا بأهلها ألوان الشر والتعذيب ، فساد الأمن وعم الرخاء ؛ ولكن الحروب المتوالية ، والإصلاحات الضخمة ، أنهكت محمد الغورى ، فاعتكف بعيداً ، وترك الحكم بين يدى قائده « قطب الدين أيبك » ، مما أطمع القائد فى السلطان ، فأعلن استقلاله التام عام ١٢٠٦ م .

وتاريخ قطب الدين حافل بالمجد ، فقد دعم الأمن والاستقرار ، وحمى الهندوس شر المغول بجيوشه القوية ، وعلى الرغم من توالى الحروب والمعارك ، وجد فسحة من الوقت يقوم فى خلالها

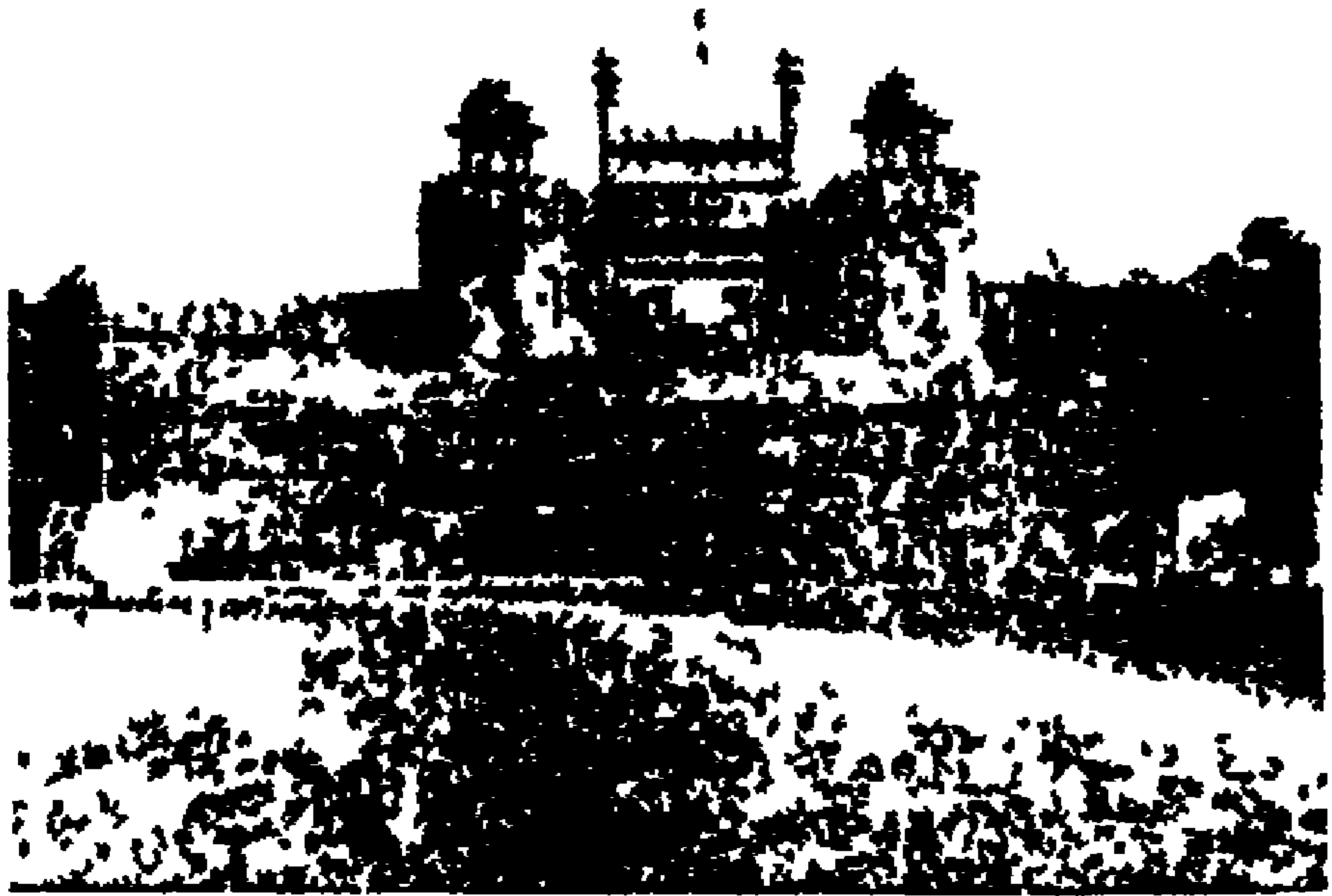
بإصلاحات داخلية ، كان لها أثر كبير فى رقى البلاد سياسة وإجتماعاً ، وسار على نهج من سبقوه فبنى حياً جديداً عند طرف المدينة يعرف الآن بمدينة « قطب » ، وجعل منه قلعة حصينة تطل على الطريق .

وأراد أن يتوج مدينته بجامع جديد ، فأمر بهدم معابد الهندوس ، فهدم منها سبعة وعشرون ، وبنى جامع « قوة الإسلام » بأعمدتها وأحجارها ؛ وبذلك أغضب الهندوس بعد رضا ، وأوغر صدورهم ، فحقدوا عليه ، وعلى أتباعه المسلمين ، فنشأت المشكلة الطائفية بين المسلمين والهندوس ، ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا بقيت مشكلة الهند الأولى !

وكانت دلهى بعد ذلك مسرحاً لظاهرة اجتماعية نبيلة ، تثبت ذكاء بعض حكام الهند المسلمين ، وسبقهم فى ميدان التقدم والتجديد ، فقد خلف قطب الدين ملك اسمه « الطمش » ، لم يعجبه ضعف أولاده وتخاذلهم ، فأورث عرشه ابنته المحبوبة « راضية » ، فكانت المرأة الوحيدة التى ارتقت العرش ، وحكمت الشعب منذ بدأ تاريخ الهند إلى الآن .

وحققت الملكة راضية آمال أبيها ، وأثبتت بتصرفاتها

الحكيمة قوة كبيرة ، ونظراً بعيداً ، وسلامة فى المنطق والسياسة؛ ولكنها ماتت بعد سنوات ثلاث ، والبلاد مليئة بالفتن والثورات ، لأن راضية لم تتمكن — بالرغم من جبروتها — من تغيير عقيدة الرجال فى حكم النساء !



قلعة دلهى بناها الأمبراطور شاه جهان

وتوالى بعدها ملوك ، ونازع بعضهم بعضاً العرش ، فانتشرت الفوضى ، واختل الأمن ، حتى استقر الحكم فى يد « غياث الدين

توجلاك » فأعاد النظام ، ونشر الرخاء ، وأمن البلاد من المغول الذين تحركوا بفضـــل هذه الفوضى ، وارتفعت رؤوسهم من جديد .

وأراد تسجيل مجده بمدينة أخرى ، فشيد حياً جديداً فى دلهى ، « أسماه توجلاك أباد » ما زالت خرائبه قائمة ، تردد أسطورة عجيبة يتداولها الناس عن السبب فى موت المدينة الحديثة ، وهى ما تزال فى المهد . تقول الأسطورة : إنه كان فى دلهى إذ ذاك شيخ طيب اسمه « نظام الدين » ، أراد أن يبنى لنفسه صومعة فمنعه الملك وطرده ، فغضب الشيخ ولعن المدينة الجديدة ، ودعا عليها بالخراب . وحدث بعد ذلك مباشرة أن هجر الناس « توجلاك أباد » فجأة فخلت إلا من الوحوش والضوارى ؛ فلما سمع الملك بذلك ، خرج على رأس جيش كبير ، لتأديب الشيخ ؛ وأقيمت الزينات وأقواس النصر فى طريقه ، فسقط قوس منهـا على رأس الملك ، فقتل لساعته ؛ مما ضاعف إيمان الناس بقوة نظام الدين وسطوته .

وقد يرجع السبب فى هجر المدينة إلى غير لعنة الشيخ ، ولـكن المصادفات ساعدت على رواج القصة ، فرجفت قلوب

الناس هلعاً من اللعنة ، وكتب على توجلاك أباد أن تظل إلى الأبد مأوى للقردة و بنات آوى والذئاب !

و تعاقب الملوك على عرش دلهى ، وقام كل منهم بما استطاع من أعمال يتوجها أبداً حى جديد . وكان بعض الملوك خشنا ، فخلف خشونة فى آثاره، وكان البعض الآخر رقيقاً فنانا ، فسجل فى البناء والتعمير تجديدات رائعة . وكان بعضهم متسامحاً ، فعاش الهندوس فى ظله آمنين ، وكان البعض قاسياً متعصباً ، فاضطهد هذه الفئة وأذلها كثيراً .

وفى عهد محمد توجلاك — ثالث حاكم بعد غياث الدين — نزلت بدلهى ضربة قاضية ، حطمت عظمتهـا ، ونالت من مكانتها وتركتها تتقلب فى ألوان الشقاء ردحا غير قصير من الزمن ؛ فقد اشتد ساعد المغول من جديد ، إثر انحلال العرش فى العهود الأخيرة ، وما نتج عنه من ثورات وضعف . وتحركت أطماع المغيرين ، فقام تيمور الأعرج ليستعيد مجد المغول ، واسترد بغاراته المروعة معظم أراضيهم القديمة ، فلما اكتملت قوته هجم على شمال الهند بجنده الأشداء .

وكانت دلهى قبلته فسار إليها وهو يصحب مائة ألف أسير

هندوسى ، فلما وصل إلى ضواحى المدينة ، فوجىء بجيش يقوده « مالوخان » ، فأثار الجيش وحشية تيمور ، فقتل جميع الأسرى خشية أن يهبوا لمساعدة مواطنيهم ! !

ولم يثبت « مالوخان » طويلا أمام المغير ، فسقطت دلهى فى يد المغول ، واجتاحت جيوشهم الشوارع والقصور ، فتركتها خرائب وأطلالا . واشتبك الأهالى مع الجنود ، وقام بين الفريقين عراك انتهى بأفظع مذبحة يذكرها التاريخ . ولم يبق تيمور بدلهى أكثر من أسبوعين ، وغادرها متجهاً نحو نهر جومنا ، وعاد إلى بلاده عن هذا الطريق ؛ فلم يكن المغول أهل استعمار دائم ، بل كانوا أشبه بعصابات تسعى وراء الثروة والكنوز ، وتعود بها من حيث أتت .

وتركت غارة تيمور فى دلهى أثاراً لا تنسى ، فعلى الرغم من بقاء العرش ، ذهبت هيبته ، وأصبح عرشاً مزلزلا خاوياً : تحيط به الفاقة ، ويخيمه العوز ، وتتردد فى جنباته آهات الأهالى ، وقد كاد يهلكهم الجوع والفقر . وبقى الملك « محمد توجلاك » على العرش يأتمر بأمر تيمور ، ويرتجف جزعا لذكرى هذا الأعرج ، فيدفعه الجزع إلى تنفيذ أوامر المغير ، وتلبية رغباته .

وعلى جدران المسجد الذى بنى عام ١٤٠٤ نجد وصفاً محزناً سمه للشقاء الذى نتج عن غارة المغول ، وللتعس الذى خلفه تيمور وراءه . وبموت « محمد توجلاك » عام ١٤١٤ تختفى حياة كلها شقاء ، وينتهى عهد الأسرة التوجلاكية ، التى حكمت دلهى أجيالا متعاقبة ، ويليها حكم المغول بما فيه من فضائل ونقائص .

ولم تترك عهود المغول الأولى غير خرائب نراها اليوم فى دلهى ، حتى تولى العرش الامبراطور العظيم « أكبر » فاستهل حكمه بمحاربة الهندوس الذين قويت شوكتهم ، فاستقلوا بدلهى ، ونصبوا عليها واحداً منهم ، فهزمهم شر هزيمة ، وأعاد سلطان المسلمين على المدينة .

ولا شك أن « أكبر » أعظم باطرة الهند قوة وجبروتا وصلاحاً ، ولكنه كان متقلب المزاج ، نارى الغضب ، فإذا ثارت ثورته ، أتى أهول الأعمال وأقساها . ويذكر تاريخ الهند قصصاً كثيرة عن غضبات هذا العاهل ، منها أنه كان لأكبر مرضع أفرط فى حبها ، فغدت وابنها «أدهم خان» صاحبى السلطة والقوة فى البلاد . واستلان لهما « أكبر » عن طيب خاطر ،

فنفذ سياستهما ، وعمل بمشورتهما ، مما حرمه الاستقلال فى الحكم والرأى .

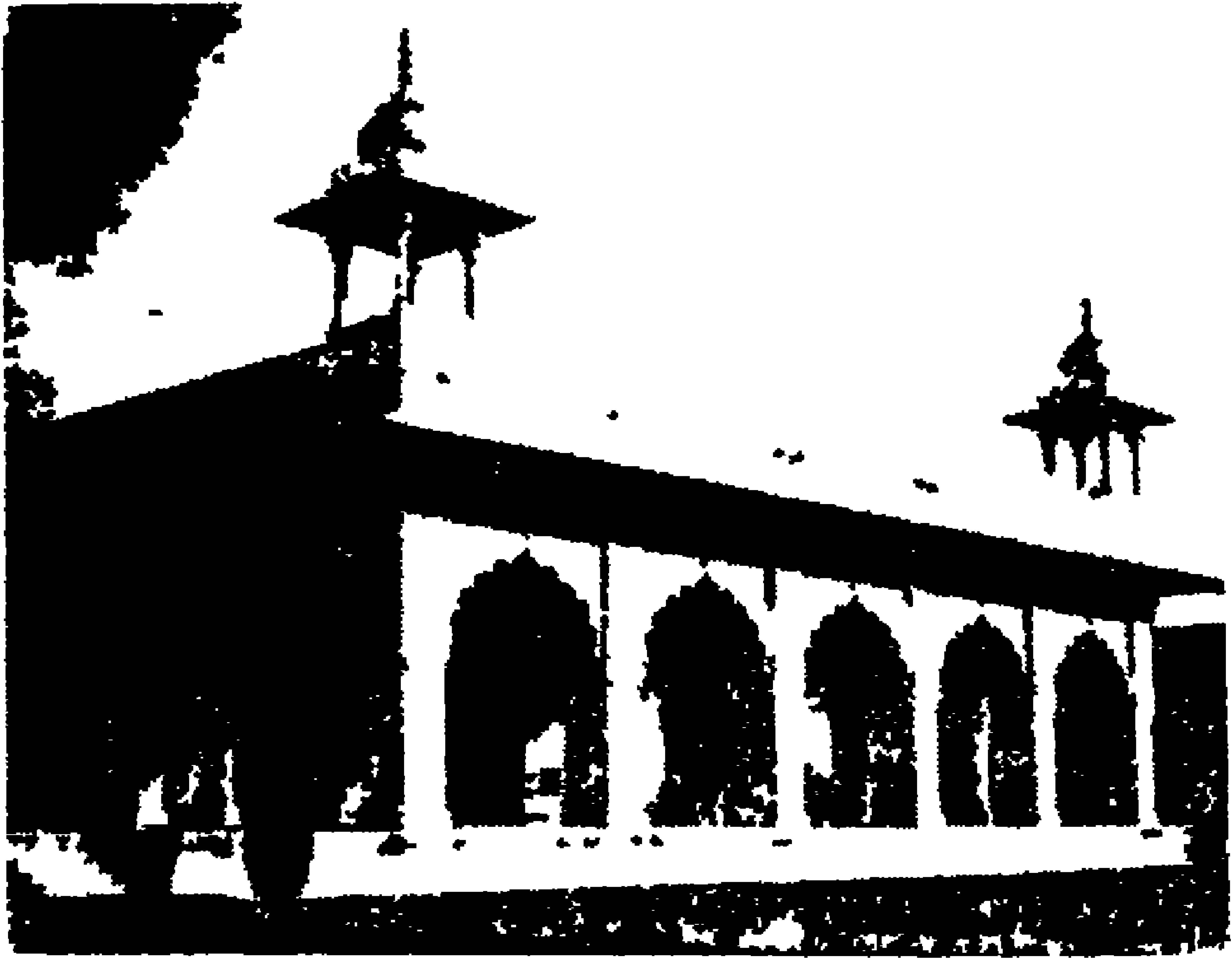
وحدث ذات يوم أن قامت مشادة بين « أدهم خان » وأحد الأمراء ، وانتهت المشادة بأن قتل « أدهم » الأمير فى بهو من أبهاء القصر ، ثم خشى أن تصل القصة مشوهة إلى الإمبراطور ، فأسرع إلى مقابلته ، واقتحم حجرته ، وما زال سلاحه فى يده ، لطلب العفو والمغفرة من صديقه وأخيه فى الرضاعة .

وفوجىء « أكبر » بابن المرضع أمامه بسلاحه فانقلب مزاجه ، وتأججت نيران غضبه ، فلم ينتظر حديثاً أو إيضاحاً ، وهجم على « أدهم » وحمله بين ذراعيه ، وألقاه من النافذة ، فسقط فوق أسوار القصر قتيلا مهشما ! !

وعند ما زايله الغضب تبين أن المرضع لن تغفر له قتل ابنها الوحيد ، فأقصاها عن القصر ، وأبعدها عن المدينة ؛ واستقل بالحكم والرأى ، ولم يعد هناك من يوحى إليه أو يوجهه .

واستعادت دلهى مجدها ثانية ، فغدت كما كانت قديما سيدة المدن ، وتاجها الرفيع ، ولكن محنة أخرى نزلت بها ، ففى يوم من عام ١٥٦٤ كان الإمبراطور « أكبر » يمتطى صهوة حصانه

فى طريقه إلى قصره بعد جولة خاصة ، فقام أحدهم بمحاولة للاعتداء على حياته ، فتضايق الإمبراطور ، وقرر أن يؤدب أهل دلهى جميعاً، فأمر بنقل عاصمة ملكه إلى مدينة «آجرا» ، وبذلك قضى على تجارة البلدة ، التى كانت تقوم على التعامل



دوان ايقاس
أو قاعه الاجتماعات الخاصة بقصر شاه جهان

مع البلاط والأمراء والحكام ؛ وقاست دلهى أزمة اقتصادية شديدة ، أنزلتها مرة أخرى إلى مدينة ثانوية لا حول لها ولا قوة.

وانتعشت « آجرا » على أطلال محنه دلهى ؛ وظلت معقل الأباطرة بعد عهد « أكبر » ، وبلغت أوج عزها ورفاهيتها فى عهد « شاه جهان » الذى أغرم بالجمال فى المبانى والمنشآت ، مما جعل تلك المدينة جنة وارفة الظلال .

ولشاه جهان قصة خلدته إلى اليوم ، فقد كان له زوجة إسمها « ممتاز » ، اشتهرت بجمالها الرائع وحسنها الفريد ، فتدله الإمبراطور فى حبها ، وفضلها على نسائه الأخريات . وماتت ممتاز فى أوج شبابها ، فحزن زوجها عليها ، وشيد لها مقبرة «تاج محل» بمدينة آجرا، وتعتبر هذه المقبرة أعظم قصور الدنيا ، فقد بنيت جدرانها بأثمن أنواع المرمر ، وزينت بالذهب الخالص ، ورصعت بالماسات واللآلىء النادرة ؛ وهو عمل جديد فى البناء لم يعرف من قبل أو من بعد . ويقال إن منظر القصر فى ضوء القمر قد ذهب بلب بعض الأوروبيين ، فاختبلت عقولهم أمام جماله الساحر .

وكما ارتفعت آجرا فى أيام شاه جهان ، قدر عليها أن تموت فى عهده أيضاً ، فقد أراد الإمبراطور أن ينشىء شوارع واسعة فى الحى التجارى ، ولكن التجار رفضوا الخضوع لإرادته ،

وأبوا تخريب حوانيتهم بتلك الطرقات الواسعة ، وبذلك صبوا الخراب على رءوسهم ؛ فقد عاد بالعاصمة إلى دلهى ، ليلقى على العصاة درساً لاينسى ، فدبت الحياة فى سيدة المدن ، وماتت



ديوان إيام أو قاعة الاجتماعات العامة بقصر شاه جهان

غريمتها بعد بوار تجارتها ، ودمار تجارها الجشعين !

و بنى شاه جهان حياً فى مقره الجديد ، وأقام « جهان أباد » عند أطراف دلهى ، وتوجها بقصر منيف ، وجامع فسيح ،

وقاعة كبيرة للحفلات ، فبذت بجمالها وفخامتها ما سبق أن بناه الأباطرة السابقون . وظلت إلى اليوم صبية وفتية ، وقد هرمت مدن دلهى الأخرى ، وتداعت جدرانها ، وأمست خرائب وأطلالا .

ولا شك أن دلهى أفادت كثيراً حلال عهد شاه جهان ، وسمت إلى مكانة لم تصل إليها من قبل ، فانتقلت إلى أوروبا شهرة ثرائها وجمالها ، واسترعت أنظار الكتاب والأدباء هناك ، فكتبوا الكثير عنها ، مما دفع تجار الغرب إلى زيارتها ، فباعوا تحفهم لبلاطها ، وعادوا بأضعافها إلى بلادهم .

ولكن الثراء يورث الطمع ، فعند ما اشتد المرض بالإمبراطور تنازع أولاده الملك ، وعمل كل منهم على استلابه دون الآخرين ، وتوج ابنه « أورنجزيب » نفسه على شمال المدينة ، واعتقل والده ، ونقله إلى آحرا ، ويقال إنه سجنه حتى موته فى غرفة صغيرة تطل من بعيد على « تاج محل » ، ليرى فى كل لحظة رمز مجده ، ويوازن بينه وبين تعسه وشقاوته !

وبعد وفاة شاه جهان حرج أورنجزيب يبحث عن أخيه « دارا » ليقتله ، ويزيحه من طريقه ، فظفر به أخيراً . وتقول كتب

التاريخ إن الأخ القاسى وضع «دارا» على حصان وقد اتجه وجهه إلى الذيل ، ليكون هذا دليل الذلة والمهانة ، وأمر أن يطوف هكذا فى جميع أنحاء المدينة ، ثم قتله بعد الطواف شر قتلة ، فبكى الناس أميرهم المحبوب ، وحزنوا عليه عهداً طويلاً .

وحكم أورنجزيب بلاد الهند حتى بلغ الواحدة والتسعين من عمره ، فكان مصدر الرعب والفزع ، ورمز الوحشية المنقطعة النظير ، حتى عاش ابنه « باهور شاه » أربعين عاماً وهو يرتجف لمجرد رؤية اسم ابيه مخطوطاً على الورق !

وظلت دلهى معقل الأباطرة حتى أفل نجم المغول ، وغربت شمس إمبراطوريتهم ، فزالت بزوالهم صفحة هندية ، مليئة بالمجد والشر : فقدكان حكم المغول على عظمته ومظاهر عمرانه ، حاشداً بالمؤامرات والدسائس والتقتيل ، ففسدت أخلاق الشعب ، وارتفعت رءوس المشاغبين ، وتوالت الثورات والمذابح ، وتسلل إلى البلاد خطر داهم ، يتمثل فى شركة تجارية انجليزية هى « شركة الهند الشرقية » ! ! !

وتوطدت دعائم الشركة فوق أطلال الفساد والانحلال ، وتأصلت جذورها مع عهود الثورات المتوالية ، وبلغت قوة

لا يستهان بها أيام الإمبراطور « علم شاه » ، فلما أحس جنود المهراتا — حرس الإمبراطور — بالخطر المقبل ، نظموا الجيوش لمحاربة الإنجليز ، وهجموا على قوات لورد ليك ، فردهم على أعقابهم ، واحتل دلهى ، فذهب استقلال الهند إلى الأبد !

ولم يرض المهراتا بالهزيمة ، فأعادوا تنظيم جيوشهم ، وحاصروا دلهى بعد عام ، ولكنهم خذلوا ثانية أمام الإنجليز ، واضطروا إلى رفع الحصار بعد أسبوعين . وتلا رفع الحصار ثورة داخلية قام بها المسلمون لطرد المستعمرين ، واستعادة مجدهم فى الهند ، ففشلت الثورة ، وأتت بعكس النتيجة المرجوة ، إذ عقد الانجليز عزمهم على إخماد أنفاس تلك الفئة المشاغبة ، فصادروا أملاك المسلمين ، وقتلوا خيرة رجالهم ، وطردوا الباقين من المدينة ، وشردوا النساء والأطفال ، وهدموا المساجد الصغيرة ، وأسكنوا جنودهم في الكبيرة منها ، حيث لا تزال آثار نيران مطابخهم باقية على جدرانها إلى الآن !

ورحب الهندوس بالمستعمر الجديد ، ووجدوا فيه منجداً لهم من أعدائهم الأولين ، فاستجاب الانجليز لشعورهم ، واحتضنوهم

وخصوهم بالمراكز والوظائف العالية وغير العالية ، فدالت دولة المسلمين فى الهند ! ! !

* * *

هذا هو مجمل تاريخ مدينة دلهى ، وفيه تقرأ قصة بلاد الهند كلها ، بأحداثها السياسية والطائفية ، فدلهى كما قلت سابقا هى الهند ، والهند دلهى ، ومن المستحيل الفصل بين الأثنتين ، ففى جوها يختلط القديم بالحديث ، وعلى مسرحها يمتزج الماضى بالحاضر ، مما يضفى عليها سحراً عجيبا .

وعلى مقربة من دلهى القديمة أنشأ الإنجليز عام ١٩٣٠ مدينة أخرى هى دلهى الجديدة ، وفيها تتمثل روح العصر الحديث وفنه ، فبيوتها صغيرة أنيقة ، تحيط بها مسطحات واسعة من الحشائش الخضراء ، والأشجار الباسقة المظللة ، حتى لتعجز العين عن رؤية المنازل المختفية وراءها .

ويخترق المدينة طريق « كوينزواى » ، ويقوم على رأس هذا الطريق قصر نائب الملك ، الذى زاره دوق وندسور أيام

كان ولى عهد الامبراطورية البريطانية ، فقال لفرط ما رآه من البـذخ :

— الآن عرفت كيف يعيش المرء عيشة الملوك !

وتقوم دور الحـكومة فى قلب دلهى الجديدة ، وتتكون تلك الدور من بناءين ضخمين متواجهين: أحدهما «السكرتارية» والأخرى « المجلس التشريعى » وكلاهما مبنى على الطرزين الـكلاسيكى والهندى

وتسترعى دار الإذاعة الأنظار بجمالها ، فهى بناء مستدير به اثنتا عشرة غرفة للغناء والمحاضرات، فرشت أرضها بالبسط الحمراء الجميلة ، ويتوسط كل منها مذياع صغير منخفض لايزيد ارتفاعه على قدم ، لأن العادة المتبعة هنـاك أن يجلس الفنانون على الأرض !

وبدار الإذاعة واحد وعشرون جهارا للارسال مما يجعلها من أقوى محطات العالم ، ويمكن القائمين بها من إعداد برامج شتى بالعربية والإنجليزية والإيرانية ولغات الهند المختلفة .

ودلهى الجديدة تعتبر عن جدارة أنظف مدن الهند فلا تعيش بها ذبابة أو حشرة واحدة ، وذلك لأنها شيدت على أسس

علمية حديثة ، فرشت أرجاؤها من الجو بالعقاقير المطهرة . وتعد المدينة ملجأ الأمراء والأغنياء وكبار الموظفين الذين يتقاضون مرتبات ضخمة ، رفعت مستوى المعيشة ، فغدت نفقات الحياة فيها فاحشة .

وتركت الحرب العالمية الثانية على دلهى الجديدة أثراً ملحوظاً ، فالسيارات الخاصة معدومة ، ووسائل النقل ضئيلة ، ونفقات الانتقال عالية جدا ، لإهمال الحكومة تحديد سعر لها معقول . وأزمة المساكن هناك على أشدها ، فقد شغلت القوات المتحاربة كثيرا من مبانيها ، وحال الغلاء دون تشييد الجديد منها ، ولذلك أقامت حكومة الهند خياما فى قطعة من الفضاء المتسع ، ليعيش فيها صغار الموظفين مع أسراتهم .

٨

كنت أظن أن مصر تفوق البلاد الأخرى من حيث عدد المتسولين الذين يعيثون فساداً فى مجتمعها ، ويتجمعون فى طرقاتها تجمع الذباب ، فيسيئون إلى سمعة بلادنا ، ويتركون فى ذهن السائح صوراً قبيحة ، تظل إلى الأبد واضحة ، حتى ليصغر أمام

وضوحها ما قديراه ذلك السائح من صور مصرية أخرى ، لمظاهر عمرانية طيبة ، أو آثار تاريخية خالدة .

وكنت وما زلت أعتقد أن آفة مصر الكبرى هؤلاء المتسولون ، الذين ارتضوا الذلة ، ولم يقبلوا عنها بديلا ، لأنها تدر عليهم أرباحا عظيمة ، دون جهد ، ودون مقاومة مذكورة من الشعب والسلطات . وضاعف عددهم تهاون الحكومات وتشجعهم على المضى فى طريقهم الممقوت ، فانتشروا فى المدن انتشار الجراد ، ليقتحموا كل مكان حتى بيوت الله ، و يضطهدوا العباد بلجاجتهم و إلحاحهم ، و يمسكوا بتلابيب الناس فلا خلاص إلا بدفع الفدية وهى القرش !

والعجيب أن الكثرة الساحقة من متسولينا لا تثير رؤيتهم رحمة أو شفقة ، فعلى وجوههم سيماء الرذائل التى ينطوون عليها ، وعلى أبدانهم الصحيحة دلائل القوة التى تمكنهم من العمل الشريف ، واكتساب الرزق بوسائل غير التسول والاستجداء .

ولكن عدد المتسولين المصريين تضاءل فى ذهنى أمام جيوش إخوانهم الهنود ، حتى خيل إلىّ أن مصانع التسول

الأساسية تقوم فى تلك البلاد ، وما مصر إلا دولة صغيرة تستورد جزءاً يسيراً من منتجات هذه المصانع !

وتلفت هذه الظاهرة نظر الغريب هناك ، ففى كل طريق أساسى أو فرعى ، وفى كل ركن ظاهر أو خفى ، يتجمع المتسولون الهنود عشرات عشرات ، يستجدون المارة بصلوات ودعوات لا نهاية لها .

ولكن المتسولين الهنود يختلفون عن زملائهم المصريين كل الاختلاف ، فدلائل البؤس الحقيقى فى وجوههم الصفراء الذابلة ، وعيونهم التى أعماها الجدرى ، وأجسادهم الضامرة النحيلة تنطق بالحرمان والجوع والعرى ، مما لا يدع مجالا للشك فى أنهم يقاسون شظف العيش ، وضيق ذات اليد .

والفقر فى الهند ظاهرة ملحوظة ، لا تقتصر على طائفة المتسولين فالطبقات العاملة محرومة أيضاً مما لا غنى عنه ، والقرى صور صادقة للغبن الاجتماعى الذى ينزل بأهلها .

والجوع والعرى والحرمان أول مشاكل الهند الخطيرة ، فقد استفحل الشر فى هذه الناحية ، وتهدد حياة مئات الملايين ، وفى العام الماضى ذهبت مجاعة البنغال بمليونين من الأنفس . وقد

يكون من المستحيل أن نصف للقارىء ما حدث فى هذه المجاعة من فظائع ، ولذلك سأكتفى بنقل نبذ قليلة من مقال كتبه جون فردريك ميهل — أحد الجنود الذين اشتركوا فى مكافحة مجاعة البنغال — وقد ترجم هذا المقال ونشر بمجلة « المختار » .

قال بعد أن وصف فنادق كلكتا الناضرة ووسائل الراحة فيها :

« بيد أن كلكتا كانت كذلك بلداً يخيم عليه الجوع والموت ، فلم يك ثمة أرز أو ذرة لسكان أحيائها الوطنية الممتدة الأطراف ، أو لطائفة الشحاذين والمنبوذين الذين يذرعون الشوارع والطرقات . ولم يكن لهؤلاء جميعاً إلا الأفاريز الجرد حيث يستجدون المارة فضلة من الطعام ، ويدلكون بطونهم المنتفخة وهم يزحفون وراء أهل اليسار من الخاصة والأوروبيين. هناك على قارعة الطريق كانوا يسقطون جثثاً هامدة حتى تأتى سيارات النقل ، فتحملهم إلى أفنية حرق الموتى » .

ويقول فى مكان آخر :

« لن يعرف أحد أبداً كم من الناس ماتوا فى مجاعة البنغال، فقد غلا الأرز ورخصت الحياة فى طول الولاية وعرضها ، ولم يكن ثمة إحصاء دقيق لعدد من أحرقوا ، فقد ترك كثير من الجثث

تبلى حيث وقعت . وقد تضلعت كلاب كلكتا شبعاً فى وليمة الموتى ، وجاست خلال الشوارع تنهش لحوم البشر وتحمل عظامهم بين أنيابها ، وكانت تهاجم الموتى الذين يسقطون ساعة يكفّون عن المقاومة . ولقد رأيت غير مرة كلباً يصارع امرأة تملكها الفزع ، ليستولى على جثة زوجها » .

ويقول فى مكان ثالث :

« ومررنا بمحلة لإعانة الجائعين من ضحايا المجاعة ، فرأينا المشرفين عليها يوزعون غرارة من الأرز — غرارة واحدة فقط — على آلاف من الناس ، فكنت ترى الأحياء فى مقدمة الحشد يتبلغون بما يقيم أودهم ، وترى الموتى يحصى عددهم فى فناء فى مؤخر الدار . وفى هذا المساء عند ما قدمنى كروفورد إلى رئيسه سألته عن محلات إعانة المجاعة ؛ وكم نفس استطاعت هذه المحلات إنقاذها ؟ فجاء جوابه صريحاً قاطعاً : « إنك لن تستطيع أن تقف شر المجاعة ببضعة أكياس من الأرز كما تعلم ، ولكن هذه المحلات تخدم غرضين ، فان فرصة الحصول على حفنة من الأرز تجتذب من الجائعين من هو أقرب إلى التضعضع

والسقوط ، وحتى إذا نحن لم نستطع أن نطعمهم جميعاً ، فإن هذه المحلات تجعل من السهل جمع جثثهم(١) »

هذا ما حدث فى مجاعة البنغال منذ عام ، أما الأخبار الحديثة فتقول : إن شيطان الفناء جوعاً ، يلوح بمنجله البغيض فوق رؤوس مائة مليون من الهنود .

والوسيلة الوحيدة لإنقاذ هؤلاء أن يسرع العالم الخارجي بإرسال الأغذية ، وهو مطلب متعذر ، فالعالم أجمع يتضور جوعاً ، وأزمة الغذاء فى الغرب أشد منها فتكا فى الشرق ، فما بالنا بالهند ، وهى تقع فى نهاية المعمورة ، وتتطلب مساعدتها مئات السفن التى لا تتوافر فى الوقت الحاضر !

والهند بلاد المفارقات العجيبة ، فهى أيضاً موطن الغنى الفاحش ، فبين جنباتها يعيش ملايين العراة الجياع ، كما يعيش أعظم أثرياء الدنيا ، ممن يملكون ثروات لا تعد أموالها ولا تحصى .

وثروة كثير من الأغنياء فى الهند ، لا مثيل لها فى أى بقعة أخرى من بقاع الأرض . ومن ذلك أن أحد الأغنياء الهنود

---

(١) هذه البند منقولة حرفياً من الترجمة العربية للمقال فى مجله المختار !!

أقرض الحكومة البريطانية عند بدء الحرب العالمية الثانية ، ثلثمائة وخمسين مليوناً من الجنيهات ! ونحن نعرف أن المرء عادة لايقرض ثروته كلها ، بل جزءاً مما يستغنى عنه ، فعلى هذا القياس يمكننا أن نتصور ثراء هذا الرجل بالتقريب .

وأذكر بهذه المناسبة أنى نزلت فى إحدى البلدان الهندية ضيفة على مليونير معروف ، فلما سافرت بعد ذلك إلى أماكن أخرى ، حدثت أصدقائى عن مضيفى ، وثروته الكبيرة ، فنظروا إلى دهشين وقالوا :

— نحن نعرف هذا الرجل ، وهو ليس غنيا كما تتصورين ، فثروته لا تزيد على خمسة عشر مليوناً من الجنيهات !

قلت :

— وكم تبلغ ثروة الغنى اذاً فى بلادكم ؟

قالوا :

— مئات الملايين بل آلافها !

وحدثتهم عن مصر ، وأفهمتهم أن ثروة مضيفى التى يزدرونها لايملكها مصرى واحد ، فدهشوا وتعجبوا ، واستنكر بعضهم قولى ، لأن مصر فى اعتبارهم بلد الغنى والرخاء !

ومرتبات كبار الموظفين الهنود عالية جداً ، تبلغ فى أحيان كثيرة بضع مئات من الجنيهات كل شهر ، ويتقاضى بعضهم فى سن مبكرة ، ما يتقاضاه رئيس الوزراء فى بلادنا . وقد سألنى أحدهم عن نصيب زملائه المصريين من مال الحكومة ، فلما ذكرت له أنهم ـ عدا الوزراء ـ قلما يبلغون مائة جنيه عند سن الستين ، حزن واغتم ، لفقر إخوانه كبار الموظفين المصريين !!

والعجيب أن بعض الأغنياء الهنود ينفقون المال فيما لا يجدى أو يفيد فى نظرى ، فيمضغون «البان» المحشوة باللؤلؤ المصحون ، ويأكلون الفضة والذهب مع الطعام ؛ فقد دعيت مرة إلى وليمة كبيرة ، ورأيت صحون الأرز والمهلبية مغطاة بورق فضى كالذى يستعمل فى لف الحلوى ، فلما حاولت أن أزيح ذلك الورق ، قيل لى إنها صفائح من الفضة الصافية ، على أن التهمها مع الطعام ، ففعلت خضوعاً لتقاليدهم ، وإن ارتجف قلبي طيلة الوقت لمجرد التفكير فى أن أمعائى تضم معدناً نفيساً كنت أتمنى لو قبضت عليه بيدى !

وبينما نجد أحد زعماء الهنود يوزن بالماس ، إذ بنا نجد آخر إذا رزق ابناً أو حفيداً وضعه فى مهد صغير فى البهو الرسمى للقصر ،

ثم يدعو أهل مقاطعته لمشاهدته ، فيلبون جميعا الدعوة ، و يضع كل منهم عند مروره بالمهد عملة ذهبية ، مع أن هذا الرجل أغنى أغنياء العالم،وليس فى حاجة إلى المزيد من أتباعه العراة الجياع .

هذا هو حال أغنياء الهنود وكبار موظفيهم وسواد الشعب تفتك به المسغبة ، وخمسة وسبعون فى المائة من الهنود لايستر أجسامهم شيء غيرقطعة صغيرة من النسيج البالى حول خصورهم ، والعمال والمزارعون يقاسون ألوان الحرمان ، لضآلة أجورهم فطبقة الكناسين أى المنبوذين ، رجالاً ونساءً ، يتقاضى الواحد منهم روبية فى الشهر أى ثمانية قروش ! أما أجر العامل الزراعى ، فثلاث أنات أى تسعة مليمات كل يوم ، مع غلاء الحياة الحاضرة !

وتسعون فى المائة من الشعب الهندى يتناولون وجبة واحدة كل يوم ، وهى وجبة صغيرة لا تغنى ولا تشبع من جوع ، ولا تسلح الجسم بمناعة ضد الأمراض والأوبئة المنتشرة هناك ولكل هذه الأسباب نجد أن نسبة الوفيات فى الطفولة مرتفعة جداً ، ومتوسط عمر الهندى سبعة وعشرون عاماً ، فى حين أنه فى مصر ثلاثة وثلاثون، ومع ذلك نصج ونستغيث اصآلة هذا المتوسط فى بلادنا .

ومن المؤكد أن بلاد الهند غنية، وتربتها خصبة، وغاباتها كثيفة وثروتها المعدنية كثيرة ، فكيف أمكن أن يبلغ الفقر فيها هذه الدرجة ؟

واقد أثارت هذه النقطة عجبي ودهشتي ، ودفعتني إلى دراسة شيء قليل عن الحالة الاقتصادية هناك ، فخرجت من تلك الدراسة القصيرة بنتيجة صادقة وهي: إن مثل الهند مثل شجرة ضخمة من الذهب البراق ، ولكن هذه الشجرة السحرية لا تعطي غير ثمار الجوع والموت والحرمان !

وقد يكون تشبيهي عقيما ، وبعيداً عن الجمال؛ ولكني أضعه بأمانة كما تراءى لذهني تماماً دون تحريف أو تبديل . أما كيف ولماذا بدت لي الهند شجرة ذهبية ، فهذا ما سأحاول توضيحه في اختصار ، حتى لا يثقل على القارئ تتبع ذلك التوضيح .

الهند قطر عظيم ، بل قارة واسعة، يبلغ طولها ألفين من الأميال ويبلغ عرضها ألفين آخرين . وعلى هذا المسطح المترامي الأطراف يعيش أربعمائة مليون من البشر ، أي خمس العالم !

ولم يقتصر كرم الطبيعة للهند على المساحة وعدد السكان فقط فهي أيضا بلاد غنية من عامة الوجوه ، وفيها من الثروة ما لو حسن

استغلاله لرفع الشعب الهندى إلى مصاف أرقى الشعوب المتمدينة

أما أين توجد الثروة ، ففى المواقع ،والمناخ، والسكان ، والطاقة الزراعية ، والـكنوز المعدنية .

وموقع الهند فريد ، ففيها من مظاهر الطبيعة ما يحميها ، ويرد عنها شر العدوان ، فالمحيط يحوطها من ثلاث جهات ، وجبال الهملايا تقف سدا منيعا فى الجهة الرابعة . والقارة الهندية المنيعة بهذه الحدود الطبيعية مقسمة ثلاثة أقسام : ففى الشمال سلسلة جبال الهملايا أعلى جبال العالم ،وفى الجنوب هضبة الدّكن ، وبين المنطقتين تقع سهول منبسطة ذات خصوبة زراعية لا يستهان بها ؛ وقد بلغ المزروع من هذه المنطقة مائة مليون من الأفدنة !

وتقوم الهملايا بعمل حيوى عظيم فى الزراعة ، فهى تمنع الرياح الجافة المنحدرة من وسط آسيا ، فيظل جو الهند محتملا مقبولا . وهى منبع الأنهار الضخمة مثل السند والجنج والبراهما بوترا : فرياح المنسون تحمل أبخرة البحار إلى تلك الجبال ، فتتحول إلى أمطار غزيرة تملأ الأنهار بالمياه ، فتروى الأراضى ، وتنبت غلة وفيرة . وبفضل الهملايا وُجدت بالهند مساقط مياه ، تولد الـكهرباء المستعملة فى الأضاءة ، وفى إدارة

المصانع ، وفى تسيير القطر . ويقول الأخصائيون إن هذه المساقط لا مثيل لها إلا فى الولايات المتحدة وكندا ، فلو استغلت على الوجه الصحيح ، لتوافرت الكهرباء فى أصغر القرى والدساكر ، ولأصبح فى مقدور كل مزارع فقير أن يقتنى جهازاً لاسلكيا ، وينير كوخه، ويستعمل الآلات الكهربائية فى حقله وعمله وطهيه.

وتمتد بلاد الهند على خطوط عرض مختلفة ، ففيها المناطق الاستوائية بغاباتها وزنوجها ؛ وفيها الجبال بثلوجها الدائمة، وسكانها الشقر، وفيها السهول بحقولها ومزارعيها الآريين أى أن الهند تحوى أجناسا بشرية مختلفة ، وهى ميزة عظيمة ؛ لأننا نعلم أن لكل شعب صفاته الخاصة، التى تؤهله لناحية من نواحى الحياة العملية والاقتصادية.

وباختلاف المناطق تختلف الحيوانات أيضاً ، فهناك الدببة الثلجية ، والفيلة الاستوائية ، والسائمة على أنواعها ؛ فمن البقر وحده يملك الهنود مائة وثمانين مليوناً وهو ثلث بقر العالم أجمع ، ومن الغنم والماعز سبعة وثمانين مليوناً ، وهو سبع ما فى العالم أيضاً .

والسهول الزراعية واسعة يبلغ المزروع منها مائه مليون فدان ، ويمكن مضاعفة هذا القدر بوسائل الرى الحديثة . وخصب التربة

الهندية عظيم ، ومناطقها المختلفة تصلح لزراعة أهم المحصولات ، وهى تغل فى الوقت الحاضر كميات وفيرة من القمح والأرز وقصب السكر والطباق والقطن والشاى .

أما المواد المعدنية فموفورة فى الهند، وفى باطن أرضها ما يحتاج إليه سكانها ، ويفى بمطالب الصناعة فيها ، مهما ارتقت تلك الصناعة واتسعت ، بحيث لا يحتاجون معه إلى مزيد ؛ ففيها المنجنيز والميكا والفحم والنحاس والبترول والقطران والحديد والمطاط إلى آخره . ويقول الإخصائيون إن باطن الأرض يحوى من الفحم ستين ألف مليون طن ، وتقول الإحصائيات إن الهند ثانى دولة فى العالم من حيث المنجنيز ، وقد بلغ ما استخرج منه عام ١٩٣٨ أربعمائه واثنين وتسعين ألف طن !

والهند لا تفتقر إلى شىء : فيها مائة مليون فدان من الغابات الاستوائيــة ، قال الخبراء الإنجليز إنها تستطيع أن تمد البلاد بمائة مليون طن من الخشب كل سنة ، فلا ينال ذلك المقدار شيئاً من عزة الغابات ، أو يقلل من كثافتها !

ونرى من هذا العرض القصير كيف بدت بلاد الهند فى نظرى شجرة ذهبية ، فروعها السحرية طويلة ممتدة ، فلو أمكن

الشعب أن يصل إلى تلك الفروع ، ويستظل بها ، لكان للهنود شأن غير شأنهم الحاضر .

ولكن هذه الشجرة السحرية فى الوقت الحاضر لا تظل إلا القلة ، أما الكثرة فنصيبها منها الجوع والحرمان . وسأشرح فى إيجاز العلات التى تحول دون الاستفادة من خيرها ؛ فأهم الأنهار التى تنبع من الهملايا ، وتروى السهول الزراعية ، وهى السند والجنج والبراهما پوترا، لا يمكن أن تؤدى وحدها وظيفتها كاملة ، بل يجب أن تساعدها مشروعات الرى الحديثة ، لتتمكن من القيام بهذه الوظيفة ، وأهم تلك المشروعات القنوات التى توزع المياه بالعدل على أنحاء الهند ، وتحملها وتتوغل بها إلى الجهات البعيدة . والخزانات ضرورية أيضاً ، لحفظ الزائد أيام الفيضان ، فيستفاد منه فى زمن الجفاف . ولكن القنوات والخزانات قليلة جداً فى الهند ، ولا يمكن أن يفى عددها الحاضر بمطالب الأرض الزراعية ، ولذلك تذهب المياه الفائضة هباء منثوراً ، وتزرع معظم الحقول مرة واحدة فى السنة ، ومئات الملايين من الأفدنة أ جرداء ، لو وصلت المياه إليها ، لا نقلبت إلى جنة خضراء .

والقوى المائية مهملة كذلك ، فالمساقط المولدة للكهرباء

لا يستغل منها إلا الخمس فقط . و يستنفد «تاتا» المليونير الهندوسى معظم هذا الخمس فى إدارة مصانعه الجمة ، وفى إضاءة مدينة بومباى . أما أربعة أخماس القوى الكهربائية فلا نجد من يستخرجها أو يستغلها ، والنتيجة أن نور الكهرباء لا أثر له فى معظم مدن الهند و بلدانها ، والإضاءة به مقصورة على بضع مدن كبيرة فقط ؛ وأكثر المصانع والقطر مازالت تسير على النمط البخارى القديم ، مما يكلف نفقات باهظة ، يرتفع معها ثمن المصنوعات الهندية إلى ضعف مثيلاتها المستوردة من الخارج .

والشعب الهندى على اختلاف أجناسه ، وتعدد مواهبه ، جاهل أمى ، لا يزيد عدد المتعلمين فيه على سبعة فى المائة مع حسن الظن . وتعدد الأديان يقسم ذلك الشعب فرقاً وأشياعاً ، يهم بعضها بعضاً ، ونار الشقاق بينهم دائماً متأججة ، فتشغل المعارك الطائفية أذهانهم ، وتصرفهم عن التفكير فى التقدم والاصلاح ، ولذلك تموت المواهب ، وتنقلب نعمة تعدد الأجناس نقمة فى بلاد الهند .

ولقد ذكرت سابقاً أن من نعم الطبيعة على تلك البلاد ، وفرة الحيوانات فيها . ونحن نعلم أن الحيوان عنصر هام فى حياة المزارع ،

فمنه يأخذ اللبن والدسم واللحم والصوف والوبر ، وبه يستعين فى النقل والحرث والعمل . ولكن شعب الهندوس يعبد البقرة ، ويقدس الحيوانات ، ويحرم ذبحها ، وأكل لحمها ، فكانت النتيجة أن تكاثر عددها ، وغدت عبئاً ثقيلا على البلاد . وعجز الناس عن إطعامها كما يجب ، مهزلت أجسادها ، وتضاءلت قوتها ، ولم تعد قادرة على القيام بواجباتها . وبلغ الجوع بها مبلغاً جف معه لبن سبعين فى المائة منها ، فانخفض سعرها ، وأصبحت البقرة تباع الآن بمبلغ يتراوح بين ثلاثين وثمانين قرشاً ! هذا إلى جانب ماتنزله قطعانها من خسارة زراعية فادحة، فهى تسير عشرات على غير هدى ، وتقتحم الحقول ، فيتهشم الزرع تحت أظلافها ، ومع ذلك لا يجرؤ أحد على زجرها أو إبعادها ، لقداستها فى عقيدة من يعبدونها .

والزراعة صناعة سواد الشعب الهندى ، فعليها يعيش تسعون فى المائة منهم ، ومن هؤلاء خمسة وسبعون فى المائة لا يملكون شيئاً من الأراضى الزراعية . ومع جودة التربة ووفرة المياه ، نجد المزارعين عراة جياعاً ، فالأرض تعطيهم أجوراً تافهة ، وغلة ضئيلة ، لا تقوم بثمن الخبز وحده . ويرجع ذلك إلى خطأ النظم

الزراعية ، فالسماد الطبيعى غير مستعمل ، لحاجة الناس إليه فى الوقود ؛ والمواد الكيميائية التى تنوب عنه ، ليست فى متناول المزارع الفقير ، والآلات بدائية ، ومصارف التسليف الزراعى معدومة ، و إشراف الحكومة يوجب الخزى ، فقد خصصت مثلا مفتشاً زراعياً لكل تسعمائة مزرعة ! والنتيجة أن أجهدت الأرض ، فتصاءلت غلتها ، وقل محصولها ، وأعطى فدان القطن منها ثمانية وتسعين رطلا ، فى حين أنه يعطى مائتين فى الولايات المتحدة ، وأربعمائة وخمسين فى مصر ! وهكذا الحال فى القمح والأرز وغيرهما من الغلات .

أما كنوز الأرض المعدنية ، فنصفها مهمل ، والنصف الآخر يستخرج بوسائل بدائية تضيع جزءاً مذكوراً منه ، والجزء الباقى يباع للدول ذات النفوذ بنصف ثمنه الحقيقى ، فيصنع فى تلك الدول ، ثم يعود إلى الهند آلات فاحشة الثمن ، يعجز عن شرائها الكثيرون .

ولا شك أن هذا العرض المقتضب يمكننا من لمحة خاطفة إلى حالة البلاد الاقتصادية ، ويكشف لنا عن موارد الثروة ، وعلات تلك الموارد ، وهى علات خطيرة ، لا يمكن أن تعالج إلا باستقلال

البلاد ، حتى يصبح للهندى الرأى الأول فى ترقية وطنه، واستغلاله لصالحه ، لا لصالح غرباء تقف أغراضهم الاستعمارية دون انتشال الهند من وهدتها ، والأخذ بيدها إلى المدنية والتقدم .

٩

تبرز فى أفق السياسة الدولية مشاكل كثيرة ، تعقد أمور العالم ، وتصبغ المستقبل بلون قاتم من الوجوم والتشاؤم . فالشعوب تتطاحن والأمم تتنازع ، وكل دولة تعمل على سحق غيرها ، من أجل السيادة والتفوق، ولكن مشكلة الهند فريدة فى نوعها ، تختلف كل الاختلاف عما نراه على مسرح سياسة العالم الحديث ، فالتطاحن فيها داخلى ، والصراع محلى، والشعب فرق مختلفة ، يحاول كل منها أن يمسك بخناق بقية مواطنيه فيخمد أنفاسهم ، و يبيدهم عن آخرهم ، ليكون له النصر والغلبة.

وتعود مشكلة الهند الطائفية الى ألف سنة مضت ، عندما كان أهل الهند — وجلهم من الهندوس — يتيهون فى بيداء الجهل والخرافات ، ويفتك بهم الهزال وضعف البنية ، لنفورهم من أكل اللحم والبيض ، كما يقضى بذلك دينهم ، الذى يدعو

إلى عبادة البقرة ، وتقديس الروح ، حتى روح أحقر الحيوانات والحشرات .

وإذ ذاك جاء إلى البلاد أول فوج من المسلمين ، ولم يكن عددهم يتجاوز خمسين ألفاً ومع ذلك استطاعوا أن ينتصروا على الملايين ، فخضعت الهند لسلطانهم ، وحكمت فئة قليلة أمة كبيرة قروناً متعاقبة ، بفضل ما امتازت به هذه الفئة من ثقافة عالية وبنيان قوى ، وشجاعة وحنكة فى ميادين الحرب والوغى .

ولكن حكام المسلمين طغوا بعد عدل ، وأضلتهم الثروة العظيمة التى أصابوها من بلاد الهند الغنية ، فتمردوا ، واستبدوا بالناس ، وحطموا المعابد ، وشغلوا بمباهج الحياة عن مصالح الوطن فبدأ عهد اضمحلال ، وتطرق الفساد إلى الإمبراطورية الإسلامية فى الهند .

وانتهز الإنجليز فرصة هذا الاضمحلال ، فتسللوا الى الهند وأنشأوا هناك شركة تجارية ، توسعت شيئاً فشيئاً ، حتى ظفرت بالبلاد وحكمتها ؛ وسر الهندوس لخلاصهم من سلطان أعدائهم المسلمين ، فرحبوا بالمستعمر الجديد ، وتعلقوا بأهداب الأجنبى الظافر ، وقدموا اليه آيات ولائهم المطلق وخضوعهم التام .

واستجاب المستعمر إلى شعورهم ، وانحاز إلى الأغلبية الضعيفة ضد الأقلية القوية ، وكافأ أصدقاءه الهندوس على خضوعهم وولائهم بالوظائف الهامة وغير الهامة ، وأنزل بسادة الهند المسلمين أنواع الاضطهاد والذلة ، فلم يمض وقت طويل حتى سيطر الهندوس على مرافق البلاد من أقصاها الى أدناها .

وانتشرت المدارس الإنجليزية فى أنحاء الهند ، فثارت كرامة السادة المسلمين ، وقاطعوا دور العلم التى افتتحها المستعمر أما الهندوس فقد أقبلوا عليها ، ودخلوها أفواجا : أولا بدافع الرغبه فى رفع مستواهم الثقافى ، ليصل إلى مستوى المسلمين ، وثانيا لإرضاء السيد الجديد الذى يحتمون به ، و يتملقون بأهدابه .

ومرت الأجيال فأصاب الهندوس هدفهم ، فتعلموا وتثقفوا ، واضمحل شأن المسلمين الثقافى ، وصارت نسبة التعليم فيهم أقل منها فى الهندوس بكثير .

وعندما حقق الهندوس جوهر أهدافهم، وهو العلم والوظائف التفتوا الى الأعراض ، و بحثوها بدقة ، فوجدوا أن أعداءهم مازالوا يتفوقون عليهم فى الصحة والمال ، فقرروا علاج الناحيتين . وأقبل بعضهم على أكل اللحم سراً ، وأكثر

البعض الآخر من تناول الأطعمة التى تتوافر فيها مواد اللحم الغذائية ، ومارسوا الألعاب الرياضية، فزايلهم الهزال والضعف ، وأصبح فى مقدور الهندوسى ملاقاة المسلم ، بعد أن كان ذلك المسلم يخيف وحده حيا هندوسيا بأجمعه .

وأخرجوا أموالهم بالربا ، فاستدان المسلمون منهم ، وعجزوا عن وفاء ديونهم ، فتسربت الثروات من أيديهم إلى أعدائهم ولم يبق فى حوزتهم غير خمسة فى المائة من مجموع أراضى الهند ، بعد أن كانوا يملكون ثلثها . وفتح الهندوس المصارف لتنظيم ثرواتهم ومعاملاتهم الاقتصادية ، فى حين رفض المسلمون أن يفعلوا مثل ذلك ، لأن المصارف معناها الربا فى نظرهم ! ! وأصبحت التجارة والصناعة بطبيعة الحال فى يد الهندوس ، ولم يبق فى يد المسلمين شىء .

وهكذا حقق الهندوس أهدافهم جميعها ، فأصابوا من الثقافة والمال والصحة والسلطان ما كانوا ينشدونه ، ففاقوا المسلمين فى كل ميادين الحياة ، وغدوا قوة هائلة تجرف ماعداها .

وتنبهوا إلى قوتهم الجديدة ، فطمعوا فى الاستقلال ، وتمردوا على وليهم الانجليزى القديم ، وثاروا عليه بعد ذلة وخضوع ،

وقاموا يطالبونه بالحرية ، فتغيرت السياسة البريطانية ، وجنحت إلى جانب المسلمين الذين أضعفهم وأذلهم اضطهادها القديم ، فرحب هؤلاء بتلك السياسة الجديدة ، وجروا وراء المستعمر ، وأمسكو بأذياله خوفاً من أعدائهم الأقوياء ، فانقلبت الآية ، وأعاد التاريخ نفسه ، ووقف المسلمون موقف الهندوس فى بدء عهد الاستعمار ! !

هذا مجمل تاريخ المشكلة الطائفية ، ومنه نرى أن الهندوس والمسلمين على مر الدهور والأجيال ، كانوا فى خصام وعراك ونزاع لا ينتهى . ولم يحدث فى تاريخ تلك البلاد أن تصافى الفريقان تماما ، وتعاونا قلباً وقالباً ، وأن سجات بعض العهود هدنة قصيرة مبعثها الخوف لا الرضا .

واشتد الخلاف بطبيعة الحال خلال الاستعمار، وأذكت القوة الأجنبية نيران ذلك الخلاف ، عملا بسياسة فرق تسد ! فما هو السبب الأول فى هذا النفور الطائفى الأزلى ؟ !

اعتقد — أن لبعض الشرائع الهندوسية دخلاً كبيراً فى التفرقة بين الطائفتين . ويقوم الدين الهندوسى على نظام عجيب من تعدد الطبقات، يبدأ من أعلى بالبراهما أو أشراف

الدين، وتليهم طبقة المحاربين، فطبقة التجار والمزارعين ، وتنتهى تلك السلسلة بالمنبوذين أو الأنجاس ، وهم الطبقة العاملة التى تعرف بالكناسين . ولكل طبقة من الميزات والحقوق ما يرفعها عما يليها ، اللهم إلا المنبوذين ، فلا حقوق لهم ولا ميزات .

ولا يقتصر نظام الطبقات هذا على شئون الدين، بل هو أساس اجتماعى قوى ، فكل طبقة مضطرة بحكم تعاليم الشريعة الهندوسية ، أن تلتزم حدودها ، بحيث لا يصح لأفرادها التعامل مع غيرهم ، أو احتراف مهنة غير التى خصصت لهم ، أو الزواج من طبقة أخرى . ومهما ارتقى الهندوسى واغتنى ، أو مهما ذل وافتقر ، فلا سبيل إلى خروجه عن طبقته ، ودخوله فى أخرى ، ولذلك كان من المألوف أن يقابل المسافر إلى هذه البلاد فقيراً من البراهما ، يتضور جوعا ، ومع ذلك لا يستطيع اكتساب رزقه بالزراعة ، لأن الزراعة لا تليق بمكانته ، فهى مهنة طبقه أدنى من طبقته .

ولو اقتصر الأمر على هذا الحد لكان محتملا ، ولكن مسألة المنبوذين تدعو إلى الأسف ، فعملهم محدود بحكم النظام الهندوسى ، لا يخرج عن كسح الفضلات وكنس الطرقات ،

وبعض الحرف الدنيا المماثلة . ويعتبر المنبوذ نجساً لا يصح لمسه، وإن حدث اللمس عفواً استدعى الأمر تطهيراً يتطلب إجراءات دينية قاسية ، منها الاغتسال فى الأنهار المقدسة .

وعدد المنبوذين خمسون مليونا ، ومع ذلك يعيشون فى ذلة دفعت بالكثيرين منهم إلى اعتناق الإسلام أو المسيحية ، هروبا من الذل والاستعباد .

ويعتبر الهندوس أصحاب العقائد الأخرى منبوذين أيضاً ، فالمسلم بالنسبة إليهم نجس ، وكذلك المسيحى واليهودى ، ولهذا يرفض الهندوسى رفضاً باتاً أن يسمح لمسلم زيارته ، والشرب من مياهه، وشراء الطعام من حانوته . ويفضل الموت جوعاً أو عطشاً على مد يده إلى طعام أو شراب لمسه مسلم ، أو نال منهما شيئا ، ولذلك كان فى كل مكان بالهند ماء للمسلمين ، وماء للهندوس ، وطعام للمسلمين ، وطعام للهندوس وهلم جرّا .

ولا شك أن هذه العروق المحزنة فى طريق الانقراض بين أفراد الطبقة الراقية والمتعلمة، فهم يتزاورون ويختلطون ، ويجالس بعضهم بعضا ؛ ولكن هؤلاء قلة نادرة ، والحقد والنفور

والكراهية ما زالت تأكل قلوب ثلاثة وتسعين فى المائة من الشعب على الأقل .

ولقد أخفقت الجهود فى التوفيق بين الطرفين ، لأن أوجه الخلاف مرجعها الدين ، وليست بنت تقاليد اجتماعية ، يمكن القضاء عليها ، وتغييرها بسهولة . وأظن أن العداء سيبقى فى الهند ما بقى الجهل ، فالجهل يورث تعصباً دينياً ، يحول بين المرء وتفهمه روح دينه على حقيقتها ، مما يدفعه إلى التعلق بالأعراض دون الجواهر .

ولقد أبدى المسلمون على الرغم من ذلك استعدادهم للتفاهم والتعاون ، أو أنهم على الأقل تظاهروا بذلك ، فلما شكل غاندى حزب المؤتمر انضموا تحت لوائه ، وشاركوه فى الجهاد أملا فى أن يزيل العمل المشترك عداوة القديم المتأصلة فى النفوس.

وسارت الأمور على ما كان يرجى ، إلى أن تولى حزب المؤتمر حكم البلاد عام ١٩٣٧ ، فطالب المسلمون أن تكون لهم السيادة فى المقاطعات الإسلامية ، حتى لا ينشب خلاف بين الحاكم والمحكوم ، ولكن غاندى واتباعه رفضوا هذا المطلب ، وصمموا على أن يكون تمثيل المسلمين فى كل مقاطعة

مطابقاً لنسبتهم العامة من الشعب ، وهى نسبة الربع . أى أن يظل المسلمون إلى الأبد أقلية ، لا كلمة لها ولا رأى ، حتى فى المناطق الإسلامية البحتة ، مثل البنجاب وكشمير والسند والبنغال ومقاطعة الشمال الغربى وبلوحستان ، فلا ينالوا فيها غير ربع المقاعد فقط ، وتبقى ثلاثة الأرباع للهندوس .



باكستان وهندستان

ودب الخلاف ، فحدث ما كان يخشى ، واختلف الفريقان وأساء كلاهما الظن بالآخر ، فاتهم الهندوس المسلمين بالإخلال بالأمن ، ورد المسلمون هذه التهمة بتهمة ظلم الهندوس لهم ، واستشهدوا ببعض الوقائع .

وزاد البلاء عند ماخرج حزب المؤتمر بقرار جديد ، يتلخص فى الاستغناء عن لغة « الأردو » ، بجعل « الهندوستانية » اللغة الرسمية في جميع أنحاء البلاد ، مع أن الأولى لغة المسلمين من زمن بعيد .

وانسحب المسلمون من حزب المؤتمر ، وخرجوا بزعامة محمد على جناح ، وأعادوا تشكيل حزب الجامعة الإسلامية ، و بذلك انتهى عهـد الصفاء المصطنع ؛ و بدأ التطاحن والعراك من جديد .

وفكر المسلمون فى موقفهم جيداً ، فوجدوا أن الخلاف بينهم و بين الهندوس واسع جوهرى ، فهم يختلفون فى الجنس والدين واللغة والزى والعادات والتفكير والطعام ؛ فعادوا إلى الفكرة القديمة التى نادى بها شاعر الهند « محمد إقبال » ، وهى فكرة تقسيم الهند قسمين ، يكون أحدهما من المناطق الإسلامية ،

ويسمى دولة « باكستان » ونلاحظ أن كل حرف من هذه الكلمة مأخوذ من اسم مقاطعة من المقاطعات الإسلامية ، وهى البنجاب وكشمير والسند ومقاطعة الشمال الغربي والبنغال وبلوخستان !

ولم يكتف المسلمون بالمطالبة بتقسيم الهند ، بل نادوا أيضاً ببقاء الانجليز ، حتى يتحقق الأمل ، ويتم التقسيم ، والا استبد الهندوس بهم وقضوا عليهم ، وهو أمر ميسور ، لتعوقهم على المسلمين فى المال والثقافة والعدد والسلطان .

وعاضد المستعمر فكرة باكستان سراً ، وبهذه المعاضدة اشتد ساعد المسلمين فى المطالبة ، فثارت ثائرة الهندوس ، وعارضوا فكرة التقسيم ، لثلاثة أسباب خطيرة : أولها أن فكرة باكستان تحطم وحدة الهند ، وثانيها أن المناطق الإسلامية غنية بالغلة والمعادن ، فلو انفصلت عاش الهندوس إلى الأبد تحت رحمة مايجود به المسلمون عليهم . والسبب الثالث، وهو أخطرها قيام دولة إسلامية فى تلك المناطق ، يجعلها متاخمة لأفغانستان فأيران ، فبلاد العرب جمعاء، ومثل هذه المتاخمه تقرب بين

مسلمى الهند وإخوانهم فى البلاد الأخرى ، مما يجعلهم قوة تهدد الهندوس .

وخيل الى الهندوس – وهم محقون فى خيالهم – أن المستعمر يختفى وراء فكرة باكستان ، فضاعفوا حملتهم عليه ، وألحوا فى استقلال سريع ، وتمردوا تمرداً شديداً ، فانتشرت الثورات ، وعم العصيان أنحاء الهند المختلفة وكل ذلك ليضطر المستعمر إلى الخروج قبل أن تتحقق باكستان . ويقود هذه الحملة ويوجهها « جواهر لال نهرو »



جواهر لال نهرو

وجواهر لال نهرو رجل عالى الثقافة ؛ قوى الشخصية ، حاد الذكاء ، يمتاز عن كثير من زعماء الهندوس بروح متسامح مجدد كفيل بأن يجعله حاكماً عادلا عظيما إذا أطلقت يده ؛ ولكن

يد جواهر لم تطلق إلى الآن ، فهو تلميذ غاندى ، وتابعه الأمين؛ وغاندى بالرغم من صفاته الطيبة الكثيرة ، متعصب لدينه تعصباً شديداً يحول دون تفاهم الفريقين المتخاصمين .

وجواهر زعيم الهندوس الأول ؛ فالشعب يعتبر غاندى الآن أبا روحياً فقط ؛ يستمد منه الوحى والبركة . أما السياسة والقيادة فالعيون فيها تتطلع الى جواهر لال .

ويقول الهندوس فى المشكلة الطائفية ، وفى مسألة باكستنان:

« نحن والمسلمون أخوة ؛ ولكن المستعمر يفرق بيننا وبينهم ، لأن التفرقة تزيده قوة وسلطاناً . ويوم ينسحب هذا الدخيل سيعود الصفاء وينمحى كل خلاف وعداء . ونحن على استعداد للتفاهم مع المسلمين ، بتأمين حياتهم وسعادتهم وأموالهم ، ولقد خطونا فعلا الخطوة الأولى فى مؤتمر سملا ؛ فأعطيناهم نصف المقاعد ، مع أن تعدادهم لا يخولهم أكثر من الربع ؛ ومع كل ذلك خذلونا فى اللحظة الأخيرة ، وتخلفوا عن الحضور ، فأخفق المؤتمر ، وضاعت فرصة استقلال الهند . والجامعة الإسلامية ليست حزبا سياسياً ، بل هى هيئة دينية ، ولو لم تكن كذلك ، لوقف المسلمون إلى جانبنا فى الجهاد حتى إذا تحقق

الاستقلال ، و حررنا وطننا من الأجنبي، استطعنا تسوية خلافاتنا القائمة ، فإن لم نستطع تسويتها ، تقاتلنا نحن والمسلمون ، و بلاد الهند لمن ينتصر. أما باكستان ، فدون تحقيقها الدماء . »

هذه وجهة النظر الهندوسية ، ولقد تناقشت فيها مع الكثيرين منهم ، فاتفق رأيهم جميعاً على ذلك . ورأيت بعد أن أستوعبتها جيداً ، أن أستطلع رأى قادة المسلمين ، فسافرت إلى دلهى ، وقابلت محمد على جناح زعيم الجامعة الإسلامية .

ومحمد على جناح شخصية فذة ، فهو رجل عالى الثقافة ، عظيم الذكاء، بادى النشاط والقوة والجلال ، فمن عينيه المتألقتين ينبعث شرر عجيب ، وعلى أنفه المحدودب ترتسم قوة الصقر الجارح ، الذى تأبى عزته أن يهبط على فريسة ، ثم يحلق فى الهواء ثانية بدونها.

وليس محمد على جناح بالرجل المتعصب ديناً ، فهو حديث الأفكار والآراء ، واسع الصدر ، يعرف أن التعصب لا خير فيه ، ولكنه مع ذلك يتخذ الدين وسيلة لضم صفوف المسلمين الهنود ، المفتقرين إلى الثقافة والمنطق . ولقد نجح فعلا بهذه الوسيلة فى ضم صفوفهم ؛ فغدوا وحدة قوية ، يخشاها الهندوس فى الوقت الحاضر .


محمد على جناح زعيم الجامعة الاسلامية

وعندما اجتمعت به، وسألته عن رأيه فى مشكلة الهند الخطيرة قال :

— «إن الخلاف بيننا و بين الهندوس جوهرى ، فالتفاهم والصداقة إذاً من المستحيلات ، فهم شعب ونحن شعب ، ور بط الإثنين لايمكن بحال من الأحوال: نحن من الجنس الآرى وهم درافدا ومغول . ونحن من أهل الكتاب، وهم وثنيون يعبدون البقرة و يقدسون الحيوانات . وسنظل إلى آخر الدهر نذبح هذا المعبود ونأكله ، وسيظلون هم إلى آخر الدهر أيضاً يقدسونه و يعبدونه. هم يتكلمون الهندوستانية ، ولا يريدون عنها بديلا ، ونحن نتكلم الأردو ، ولن نقبل عنها بديلاً . أبطال تاريخنا أعداؤهم ، لأنهم دحروهم وهزموهم . وأبطال تاريخهم أعداؤنا ، لأنهم دحرونا وهزمونا . ويوم يحتفل أحد الفريقين بذكرى أبطاله ، يبكى الآخر حزناً وحسرة ! ولا يمكن أن

تزول الخلافات بيننا و بينهم ، ولن نثق فى وعودهم، فقد حاولنا وأبنا بالخيبة أكثر من مرة ، وحكومة المؤتمر دليل على صدق قولى ، وفظائعها معنا شهيد على ذلك ، فلن نقبل بعد الآن أن يحكمنا الهندوس ، وهم كثرة ونحن قلة ، فبمثل ذلك الحكم فناؤنا النهائى . وفرصتنا الوحيدة باكستان ، وسنريق دماءنا إلى آخر قطرة فى سبيل تحقيقها ، فالمناطق الإسلامية يجب أن يحكمها مسلمون ، والمناطق الهندوسية يحكمها هندوس ، وستبقى أقلياتنا عندهم ، وأقلياتهم عندنا ، فيحفظ التوازن ، و يطمئن الطرفان إلى العدالة والمساواة .

ولما اعترضت على فكرة التقسيم ، وتعجبت لنداء حزب الجامعة الإسلامية ببقاء الإنجليز فى البلاد ، قال :

« ليست فكرة التقسيم جديدة ، فالبلاد أوسع من أن تكون دولة واحدة ، والتقسيم فى الهند قائم منذ آلاف السنين إلى الآن ، بدليل وجود المقاطعات الهندية المستقلة ، أى إننا الآن دويلات صغيرة ضمن حدود دولة كبيرة » .

وسكت محمد على جناح قليلا ثم قال فى شىء من الحدة :

— « ليس فى مناداتنا ببقاء الإنجليز إلى أن تتحقق فكرة

باكستان ، ما يدعو إلى العجب والدهشة ، فإن خرجوا الآن اتهينا تماما ، فصلا عن أننا لا نقبل أن نستبدل باستبداد الإنجليز استبداداً هندوسياً أقسى وأمر ، فالإنجليز على الأقل من أهل الكتاب مثلنا ، والتفاهم معهم ميسور ! » .

ولم أوافق على هذا الجزء الأخير بطبيعة الحال ، ولكننى سكت ولم أعترض عليه ، فالمناقشة فى مثل هذه النظريات غير مجدية . ولم أشأ أن أسأل محمد على جناح عن السبب الذى حدا به لأن يرفض نصف مقاعد مؤتمر سملا ، مما أدى إلى القضاء على فكرة الاستقلال إذ ذاك ، فلقد فهمت السر قبل مقابلته ، من محادثاتى الكثيرة مع قادة الرأى فى الهند .

والحقيقة أن حزب الجامعة الإسلامية طالب بنصف المقاعد ، فعارض الهندوس ، معارضة شديدة ، ولكنهم قبلوا أخيراً ، وخضعوا لمطلب المسلمين ، أملا فى تحقيق الاستقلال . ولكن نائب الملك فى الهند لعب دوراً خفياً ماهراً ، ففاجأ حزب الجامعة بعد الاتفاق برأى جديد ، وأعلمه أنه يحتفظ ببعض المقاعد ، لحزب إسلامى آخر فى بومباى . ولما كان حزب الجامعة هو حزب الأغلبية الإسلامية الساحقة ، ولما كان حزب بومباى

صغيراً ، يعد أعضاؤه على الأصابع ، ويتصفون بحبهم للمستعمر مما أفقدهم احترام مواطنيهم جميعاً ، فقد ثار محمد على جناح لذلك ، ورفض قبول الوضع المهين ، وتخلف عن الحضور احتجاجاً ، فمات المؤتمر فى مهده ، واتسعت شقة الخلاف ، لأن الهندوس رأوا فى موقف الجامعة عاملاً أساسياً فى ذلك المآل .

والواقع أن مشكلة الهند خطيرة عويصة ، تأصلت جذورها فى المجتمع ، حتى أصبح حلها يبدو مستحيلا ، ولكنى مع ذلك ما زلت أقول إن الهنود لو تركوا معاً دون عنصر ثالث محرك للبغضاء بينهم ، لنظموا أمورهم ، وقضوا على خلافاتهم .

ومصيبة الهند الكبرى فى زعمائها ، فبالرغم من أهدافهم الطيبة ، ومقاصدهم النبيلة ، لم يخلقوا للسلم والوفاق ، فلقد ولدهم الخلاف والعداء والصراع ، وأصبحوا لا يصلحون لغيرها . أما السلام ففى حاجة إلى زعماء آخرين ، من أبناء السلام لا أبناء القتال ، فنحن نعرف أن القائد الحربى ، قد يسجل لبلاده نصراً عالمياً فى الحرب ، فإذا وضعت الحرب أوزارها ، وعاد إلى وطنه ، عجز عن إدارة دفة الشئون فى عهد السلم الذى لم يخلق له .

وليست هذه الظاهرة مقصورة على الهند ، بل توجد فى جميع

البلادالناشئة مثل بلادنا ، تلك التي حكمت عليها الأقدار بالجهاد والصراع من أجل حرية مسلوبة ، فزعماؤها أيضاً أبطال حرب ، لا قادة سلم وهدوء . ولو تركنا السلم بين أيديهم المقاتلة ، لتحركت طبيعتهم الحربية مرة أخرى ، وقامت تخلق معارك داخلية جديدة ، تستنفد فيها قوتها .

١٠

قرأنا فى الصفحات السابقة مجملا للمشكلة الطائفية فى الهند ، يتضمن أقوال كل فريق وبراهينه فى التدليل على صحة وجهة نظره : فالمسلمون يقولون المرة بعد الأخرى إنهم شعب قائم بذاته ، لا صلة له بالهندوس ، ولا رابطة تجمع بينه وبين الطوائف الأخرى . أما الهندوس فينكرون ادعاء المسلمين ، وينسبونه إلى تعصب دينى ، يثيره المستعمر فى قلب الأقلية الكبيرة ؛ ثم يؤكدون أنهم والمسلمين شعب واحد ، لا يصح تقسيمه ، أو عزل طائفة منه .

والآن سنرى مبلغ دعوى المسلمين من الحقيقة ، ونصيبها من

الصدق ، وذلك بسرد حججهم الجغرافية والتاريخية ، وللقارئ بعدها أن يحكم لهم أو عليهم .

يقول المسلمون : إن بلاد الهند أقرب إلى قارة منها إلى دولة ، فطولها ألفان من الأميال ، وعرضها ألفان آخران ، ولهذا الاتساع العظيم تحتوى البلاد على شتى أنواع المناخ ، ففيها الجبال الشامخة التى تغطيها الثلوج طيلة العام ، وفيها الصحارى القاحلة ، والسهول الخصبة ، والغابات الاستوائية الكثيفة .

ويختلف السكان باختلاف مظاهر الطبيعة ، ولذلك فهم خليط عجيب ، لا مثيل له فى الدول الأوروبية ، مع أن مساحة الهند تماثل مساحة أوروبا خلا الروسيا . ولكن سكان أوروبا المتسعة فينتمون إلى شعبة بشرية واحدة ، وهى الشعبة البيضاء ، فهم يرتبطون معاً برابطة اللون ، مضافاً إليها رابطة الدين وهى المسيحية . أما الهنود فينتمون إلى ثلاث شعب : البيضاء والصفراء والسوداء ، ويتباينون فى اللون والدين ، وفى كل مظهر آخر من مظاهر الحياة . ومع ذلك نجد أن أوروبا مقسمة إلى عشرات الدول ، فلماذا تكون الهند دولة واحدة ! ؟

والأجناس البشرية المختلفة ، لا تعيش مختلطة فى الهند ،

فلكل منها موطنه الخاص ، الذى كيفته الطبيعة له ، لاستحالة حياته فى غيره : فالشعب الأبيض مسلم الدين ، آرى الجنس ، يقطن الشمال الغربى ، ويتكلم الأردو وهى لغة آرية . وموطنه صحارى قاحلة ، وسهول واسعة ، يبلغ متوسط الأمطار فيها عشرين بوصة فى العام على أكثر تقدير ، وفى بعضها يبلغ خمس بوصات فقط . والجو صحراوى ، قارس البرودة فى الليل ، مشمس معتدل فى النهار ، فإذا جاء الصيف اشتدت الحرارة ، وهبت رياحها الساخنة ، على تلك الأراضى المستوية ، حتى تكاد تحرق بلفحاتها ما تجده فى طريقها .

ولقد هاجر هؤلاء الآريون من آسيا الوسطى ، فاحتلوا سهول الهند الشمالية الغربية ، لأنها فى جفاف المناطق التى نزحوا منها ، ولم يستطيعوا على مر القرون أن يتقدموا أكثر من ذلك ، لأن التكوين الجثمانى والصحى لتلك الفئة ، لا يساعد على احتمال جو المناطق الجنوبية الاستوائية ، ولا الجهات الشرقية المسونية .

وللآريين الهنود ميزات ظاهرة : فهم بيض الوجوه سمياً ، عريضو الأكتاف ، طوال القامة ، أنوفهم حادة ، وشفاههم رقيقة . وهم يأكلون اللحم كثيراً ، ولا يصنعون خبزهم إلا من

القمح ، فضلاً عن أنهم ، بحكم المناطق التى يعيشون فيها، كرماء مثل عرب البادية ، خياليون أهل أدب وشعر ورقة .

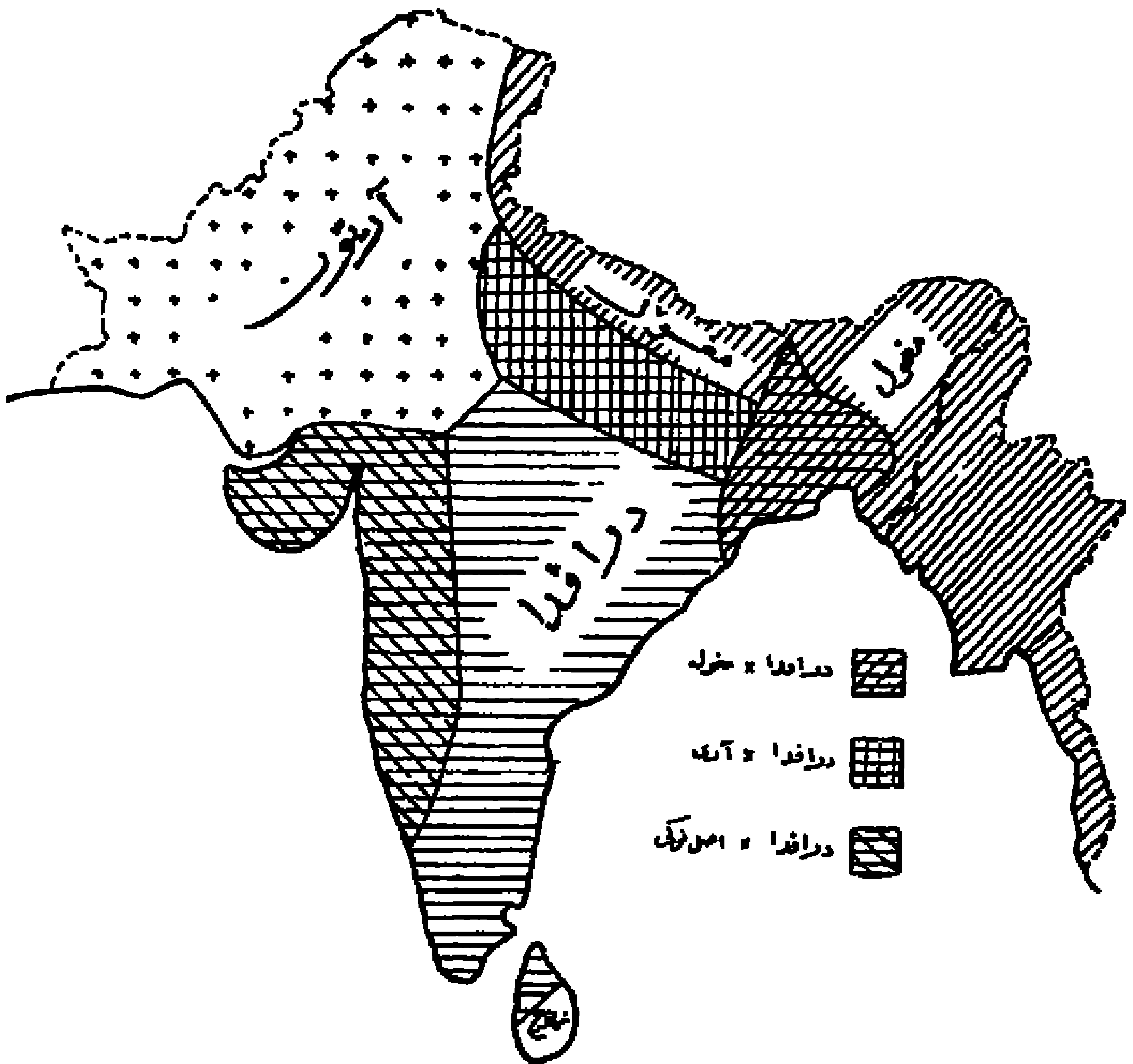
ويتخذ هذا العريق الإسلام ديناً ، فيؤمنون بالله ووحدانيته ، ويحترمون الأديان السماوية الأخرى ، ولا يعترفون بالتفرقة ، وسمو طبقة على أخرى ، فالجميع سواء أمام العدل والشريعة ، وأقرب الناس إلى الله وأكرمهم عنده أتقاهم .

ولغتهم الأردو مليئة بالألفاظ الفارسية والعربية،وهم يتمسكون بها ويكتبونها بحروف عربية ، فيها كلمات من القرآن ، وعليها بنوا ثقافاتهم وآدابهم وأشعارهم الرقيقة الخالدة .

ولقد ميزت الطبيعة هؤلاء حتى فى الحيوان ، فالجمل دابتهم الأساسية ، ولا وجود له فى غيرها من المناطق ، فقد خلق الجمل للمناطق الرملية ، ولذلك يحتمل العطش ، ويقطع بخفافه القفار والرمال ، وتتسع خياشيمه ، لرياح الصحارى المحملة بالرمال .

أما الجنس الأصفر فيعيش فى شرق الهند حيث الأمطار شديدة الغزارة ، يبلغ متوسط ما يسقط منها كل عام مائة بوصة ، والشتاء فى هذه المنطقة معتدل ، وصيفها مقبول ، بفضل الأمطار الغزيرة ، ورياحها منسونية تساعد على نمو غابات كثيفة متشابكة الأغصان ،

فيحتجب الضوء فى قلب تلك الغابات ، وتبدو ظلاماً دامساً فى رائعة النهار .



توزيع الأجناس البشرية فى الهند

« والهنود الصفر امزيج من الدراندا والمغول أصلا ولغة ، (فلغتهم سنسكريتية تكتب بحروف عجيبة خاصة) ودماءهم المغولية لا تنحدر من المغول المسلمين الذين اجتاحوا شمال غرب الهند أيام الامبراطورية الهندية الأسلامية ، بل هم سلالة المغول الوثنيين الذين انحدروا من هضبة التبت فى غارات قديمة سابقة للأسلام . وهم قصار القامة صفـــر اللون أنوفهم فطساء ، وعيونهم ضيقة متقاربة ، فضلا عن أنهم نباتيون ، لا يتذوقون اللحم ، ولا يصنعون خبزهم من القمح أبداً ، ويعيشون على الأرز الذى ينمو عندهم فى كثرة وسهولة . والطعام مظهر من مظاهر اختلاف البشر ، وقد قال « دكتور ستامب » الجغرافى الإنجليزى ، عندما تكلم فى كتابه، عن منطقة مدراس الهندية :

« بالنظر إلى الشمال ، نلاحظ غياب القمح فى هذه المنطقة . ومنذ سنوات مضت حدثت مجاعة شديدة فى مدراس، فاستوردت الحكومة من الشمال كميات كبيرة من القمح إلى المنطقة الجوعانة، ولكن اختلاف العادات بسبب اتساع الهند ، والرجعية الموروثة في الجماهير الجاهلة ، جعلا الناس يموتون آلافاً ، وهم على مرأى من عربات القمح ، التى أبوا أن يلمسوها . . . » .

ولقد صدق دكتور ستامب فى قوله فقد أبى هندوس مدراس ، أن يلمسوا القمح لأنهم اعتادوا الأرز ، فبقيت العربات محملة كما هى ، وأمات الجوع آلاف الناس .

ولأن الطبيعة كريمة مع الصفر، تعطيهم كل ما يحتاجون إليه، نراهم على عكس المسلمين الآريين بخلاء ، لا يعرفون الكرم ، ولا تجود أيديهم بشىء ، لأنهم لا يفهمون معنى لذلك، ما دامت الطبيعة تقوم عنهم بواجب الكرم نحو الجميع وتمتاز هذه المنطقة أيضاً بحيواناتها ، فالفيل دابتها الأولى ، و بفضل جلده السميك يمكنه اختراق طريقه فى الغابات المتشابكة الأغصان، و بخرطومه الحساس يتحسس طريقه ، و يحطم الأشجار التى تعوقه ، ومعدته الضخمة تتسع لقدر كبير من الطعام الموفور فى كل مكان .

والهندوسية دين أهل هذه المنطقة، وهى تختلف عن الإسلام كل الاختلاف ، فتقوم على عبادة البقرة وتقديس الروح، ومرجع ذلك عدم استقرار الحياة حيث يعيشون ، بفعل صواعق المونسون فى الشرق والجنوب ، و بفعل ثعابين الكبرا السامة ، ووحوش الغابات الضارية، والأوبئة والأمراض القاتلة ، التى تنتاب هذه المناطق كثيراً ، فتودى بأرواح الآلاف . وهذه العوامل تنقض

فجأة وتزول فجأة ، لذلك يخشى الناس شرها ، ويعتبرونها مظهراً من مظاهر غضب الآلهة ، ويقدمون من أجلها القرابين ، ويعبدون تلك الروح الغامضة المجهولة ، التى تغادر الإنسان ، فتتركه بعد ثانية واحدة جثة هامدة .

ومن أصعب الأمور أن نصف الديانة الهندوسية ، فقد حار فى ذلك الوصف كتاب ومؤرخون كثيرون ؛ فقال مرجع انجليزى :

« إنها مجموعة من الحقوق والعادات والأساطير » .

وقال أحد زعماء الهنود :

« إنها ما يفعله عامة الهندوس » .

وعلى كل حال فهى مجموعة من الأنظمة ، تقوم على أساس متين من تعدد الطبقات ، وفصل بعضها عن بعض ، مع وضع واجباتها وحقوقها ، بحيث تقرر مركز الإنسان الاجتماعى من المهد إلى اللحد . ومن أجل ذلك لا يستطيع هندوسى ، مهما حاول ، أن يخرج عن طبقته ، أو يحطم الجدران الفاصلة بينه و بين غيره .

والجنس الأسود ثالث الأجناس البشرية الهندية ، من سلالة « ما قبل الدرافدا » ، أى أقدم الأجناس البشرية فى الهند .

ويسكن هذا الفريق الجنوب الاستوائى ، حيث لا تتغير الفصول ، فيغطى النبات الأرض طوال العام ، وتنتشر المستنقعات فى كل مكان ؛ ولسخاء الطبيعة نراهم كسالى ، لا يقوم معظمهم بعمل، ما دامت ضروريات الحياة فى متناول كل يد .

وزنوج الهند سود اللون ، قصار القامة ، صغار الأجسام ، فطس الأنوف ، غلاظ الشفاة، ويتكلمون لغات زنجية خاصة .

أما دياناتهم فهندوسية أو وثنية ، وعاداتهم فطرية بدائية ، وطعامهم الأرز ، وحليفهم البخل ، فهم على الإجمال من حيث الأخلاق والغرائز والطعام أقرب إلى الهندوس منهم إلى أى جنس آخر ، ولذلك يعتبرهم الهندوس جزءاً منهم .

هذا بيان قصير لكل جنس من الأجناس الثلاثة الأساسية التى تعيش فى الهند ، وبه يدلل المسلمون على العوامل الحيوية المختلفة التى تقوم دون وحدة البلاد ، وتستوجب عدم بقائها على ما هى عليه . ويقولون إن تلك العوامل كانت أبداً مبعث البغضاء والقتال فى الهند ، حتى قبل دخول المسلمين ، فلا ينتظر — والحال هكذا — أن يسود التفاهم ، ويرفرف الوئام على هذه الشعوب ، طالما هى مجبرة على الحياة معا ، ضمن حدود

واحدة ، وتحت قوانين واحدة ، قد تلائم طبيعة البعض ، ولا تتناسب مع البعض الآخر .

قال البروفسور « لايد » عندما تكلم عن التجار الأوروبيين الذين كانوا يتاجرون مع الهند منذ ألفى سنة قبل دخول الإنجليز :

« من سوء الحظ أن قرونا من التجارب ترك هؤلاء التجار يؤمنون بفكرة واضحة صادقة تتلخص فى أن الهند ما هى فى الواقع إلا تعبير جغرافى ، فأهلها من أجناس مختلفة ، ويتكلمون لغات مختلفة ، ولا يكفون أبداً عن قتال بعضهم بعضاً » .

ويقول فى مكان آخر من الكتاب :

« ليس فى الهند أى نوع من الوحدة اللهم إلا وحدة الاستعمار الإنجليزى » .

ويذكر فى مكان ثالث :

« وبفضل هذه الأجناس الثلاثة البشرية ، والشعب الثلاثة اللغوية ، والعقائد الثلاث المتباينة ، ستبقى الهند إلى الأبد معضلة بلاد مختلفة الشعوب ، لا تجمع بينها أية رابطة ، حتى الطعام والعادات » .

وبهذا تنتهى حجج المسلمين وأدلتهم ، وقد تكون تلك

الأدلة مقنعة، وقد لاتكون كذلك، فعلينا إذاً أن ننتظر ماتتمخض عنه أحداث المستقبل القريب ، لنرى أفى استطاعة الهنود أن يتناسوا الفوارق بعد استقلالهم ، ويعيشوا أخوة أحباء ، أم تقوم بينهم حرب أهلية تسجل الغلبة لفريق على فريق .